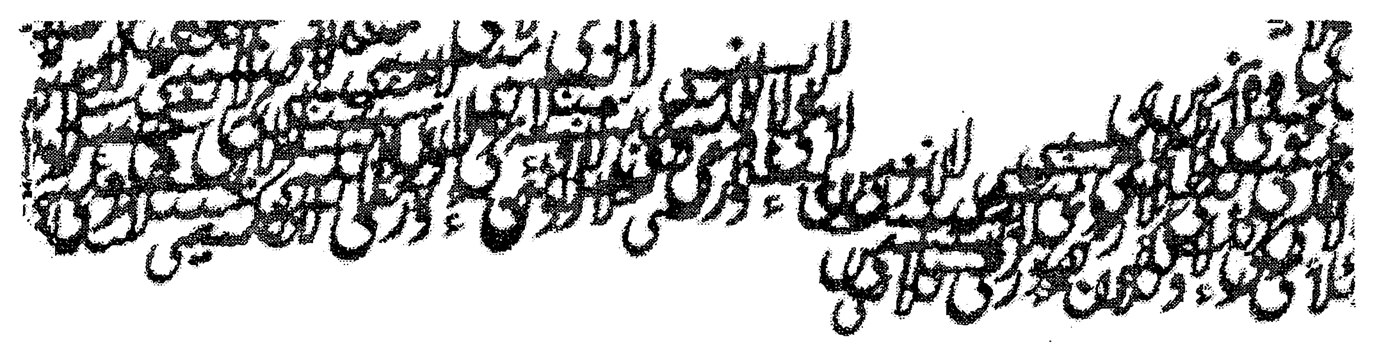

مدونة ابو عبدو
أبو عبدو البغل
لميس
رواية
لميس عمران
كريم شعلان
مؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر

لميس





كريم شعلان

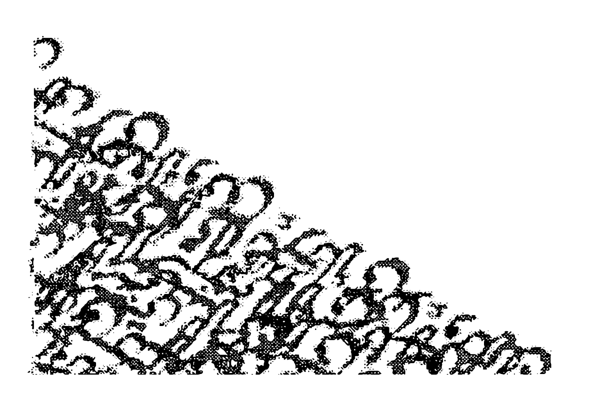
لميس

مؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر
القاهرة – ش الشيخ معروف من شمبليون – عمارة ج- وسط البلد
تلفون: 20225743534+
البريد الإلكتروني : arweqhhhh@gmail.com

رقم الإيداع: 2019/3547
الترقيم الدولي: ISBN: 978-977-774-543-1

الغلاف من تصميم الفنان قحطان الأمين

الطبعة الأولى
2019
أروقة





لميس عمران
كريم شعلان

لميس

رواية

مؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر

مقدمة لابد منها

حكايتي هذه كتبتها بصوتي وبعض مسودات كنتُ أسهر كثيرا في صياغتها. أعصرُ ذاكرتي وفكري وأنا أخطُّ بكلّ قدرتي على تذكّر بعض كلمات أحاول من خلالها استعادة أحداث مامرّ عليّ وماجرى لي في حياتي التي عشتها في بلدي العراق.

كنتُ أبحث عن قلم بارع يستطيع تدوين ما أقول وما أتذكّر وما يجعلني أضع حكايتي بصيغة أدبية مقبولة تجعل القارئ يستمر معي حتى النهاية، حتى التقيتُ الكاتب كريم شعلان، الذي ربطتني به صداقة حميمة وصار بمثابة المعلم والأخ الحنون الذي منحني من وقته وأحاطني برعايته بطريقة أعجز عن وصفها أو تعجز كلماتي عن شكره وتقدير مواقفه معي.

من خلال صديقتي أمل حبيب، استطعتُ أن أستمر في حياتي بشكل صحيح. أمل حبيب هي السيدة التي انتشلتني من الغربة وجعلتني أشعر أني في بيت أهلي لما قدمته إلي من أشياء أعجز عن تعدادها وذكرها. عند وصولي إلى كندا، لم أكن أعرف أحدا. مرّتْ بي ظروف قاسية كثيرة، لكنها هانتْ وتبدّدتْ أثناء لقائي بالصديقة التي مازالتْ هي أختي وأمّي وكلّ عائلتي

وهي التي عرّفتني بـ كريم شعلان، لنشكّل معا ثلاثية أصدقاء، ربطتنا علاقة حميمة عوّضتني عن الأهل وجعلتْ غربتي تهون وتتلاشى.

كتبنا هذه الحكاية وتعاونّا لإصدارها بما جاءتْ عليه، استمرّ العمل أشهرًا طويلة نلتقي بشكل أسبوعي، نتحاور ونستمع لبعضنا في كل سطر وكلّ كلمة، نعيد ونزيد، نختلف ونتفق، ثم نصل لنتيجة إيجابية مع كل فصل.

ولابد لي من أن أقول:

هذه الحكاية هي قصة حياتي، وأنا مسؤولة عن كلّ كلمة فيها وعن كل حدث وواقعة واسم وفعل تتضمنه، وأن ما دفعني لنشرها هو الشعور بالغبن والظلم الذي حلّ بي والذي يحلّ بالآلاف من أمثالي من المظلومين والمظلومات في هذا العالم وخاصة في العراق والبلاد العربية. حاولتُ أن أضع القصة بكلّ واقعية وأن أجعل (كريم شعلان) يخرج عن لغة الشعر التي يمتاز بها، ربما أني نجحتُ نوعا ما، لكون النص جاء مليئا بالشعر والخيال، وأن أجعل الشخوص الذين يتحركون في صفحات الكتاب بما هم عليه بكلّ سلوكياتهم وأشكالهم وردود أفعالهم.

هذه الحكاية هي محاولة منّي لتسليط الضوء على العار الذي يحيط بنا ونحن نعيش في بلدان لارحمة في قلوب حكوماتها ولا شجاعة في قلوب شعوبها، وهي قصتي المليئة بالبؤس والانكسار والتحدّي.

لقد قاومتُ سجون الطاغية ووقفتُ بشجاعة بوجه الجلادين المجرمين الذين ينالون من الجسد، لكنهم لاينالون من العقول والإرادة وقوّة الكلمة. ومن خلال هذه المقاومة التي تخللتها فترات ضعف وانهيار

وآلام، تكوّنتْ لديّ المناعة التي تجعلني الآن أقفُ بكلّ قوّة لأقول ما لي وما عليّ دون خوف أو خشية من أحد.

هذه حكايتي، لتكن درسا لنا جميعا، لأنها حكاياتنا جميعا، فكلّ عراقي أو عربي له مشاركة من بعيد أو قريب في أحداث هذه الحكاية التي سوف لن تنتهي إلا بوقفتنا معا ضد الظلم ولأجل الإنسان.

لميس عمران.

(١٩٩٧ هروب ضابط طيّار عراقي)

لم يكن هذا العنوان المثير قد عُرف بشكل عام، أو ربما لم يظهر إطلاقا، نتيجة لتعتيم الحكومة العراقية آنذاك على الخبر الصادم الذي هزّ القيادة العراقية وجعل الرئيس العراقي صدام حسين ينتفض غضبا مُعاقِبا عددا كبيرا من الضباط في القيادات العليا في القوّة الجوية العراقية والاستخبارات العسكرية.

هرب الضابط الطيار الحربي النقيب الخائن (مُحَمَّد. ع) بصحبة الضابط الطيار الحربي النقيب الخائن (إحسان. ع) وهما يقودان طائرة مقاتلة متوجهين بها الى جهة مجهولة، ربما تكون إيران أو إسرائيل (هذا مارأيته مكتوبا على ورقة في مكتب ضابط التحقيق).

لم يسمع بهذا الخبر أغلب العراقيين ولم تسمح السلطات بالإشارة له بأية وسيلة إعلامية، بل وضعتْ عواقب صارمة بحق كلّ من يسرّب الخبر أو يتحدّث به إلى الناس مهما كان وأينما كان.

هذا الخبر الذي هزّ الدولة، كان على نسبة عالية من التعتيم، لكنّه كان مفتوحا أمامي أناوحدي، أنا التي سوف أواجه هذا الخبر بكلّ تفاصيله وتحليلاته وأبعاده ومسبباته ونتائجه وتداعياته وحقيقته وردود أفعاله وعمالته وعقوباته التي تجتمع بآلاف الإعدامات، نعم أنا

وحدي سأواجه كلّ ذلك لأنني زوجة الضابط الطيار الحربي الخائن، أواجه كلّ هذا وأنا البنت التي لم تتجاوز السادسة والعشرين آنذاك.

اسمي (لميس عمران) من مواليد بغداد ١٩٧١ أكملت دراستي الثانوية ودخلت جامعة بغداد قسم اللغة الإنجليزية، لكنني لم أستطع إكمال دراستي بسبب السجن، السجن في بيت زوجي أولا، ثم السجن في أقبية المخابرات والاستخبارات العراقية بسبب الضابط الطيار الخائن زوجي.

من هنا تبدأ الحكاية، ومن هنا تبدأ رحلة الألم بكلّ قسوتها ودمارها. لم تكن لديّ الجرأة على البوح لأحد بما حلّ بيّ وما أصابني من هول وعذاب طيلة فترة وجودي في العراق، سواء في سجن بيت زوجي وعائلته أو في سجون النظام الدكتاتوري وماتلاه من عواقب فظيعة طيلة الفترة الحرجة من وجودي في العراق منذ ١٩٩٧ ولغاية سقوط النظام البعثي ٢٠٠٣ وحتى هذه اللحظة التي أعيشها الآن في (كندا) وهي اللحظة التي أشعر بها بقوّة إرادتي وحريتي، لتجعلني أشعر بمسؤولية أن أبوح بكلّ قدرتي وأفضح كلّ المجرمين الذين تسببوا بإيذائي وتعذيبي، وحرماني من عيش حياتي بشكل طبيعي، حيث مازلت أعاني من الكوابيس والاضطرابات النفسية والآلام الجسدية المزمنة بسبب ماتعرّضت له من تعذيب وقهر على جريمة اقترفها زوجي وتركني أواجه كلّ هذا العذاب والظلم دون وازع ضمير أو قطرة رحمة أو نقطة حياء في جبينه.

لم تكن مرحلة مابعد سقوط صدام حسين أرحم من سابقاتها، بل كانتْ أسوأ بكثير بالنسبة لي ولعائلتي، حيث توالتْ علينا المصائب والويلات وفقدنا الكثير من بنات وأبناء عائلتنا بسبب الحرب الطائفية التي لم يحسب لها الأبرياء حسابًا.

أحداث كثيرة وميتات أكثر حلّتْ بي أنا شخصيًا، لكنني وبقدرة الله لم تنل منّي واحدة منها. غادرتُ العراق بصعوبة بالغة وبقيت فترة سنوات طويلة في سوريا، ولسنوات سوريا أحداث كثيرة ومريرة أيضا، لكنني وبإصرار وعزيمة استطعتُ أن أقطع المسافات لأستقر الآن في كندا.

الآن أعاني من أمراض كثيرة نفسية وجسدية، وأنظر بحسرة وألم إلى الحياة وإلى العراق بلدي الذي أحبّه والذي لم أحصل منه سوى التعذيب والتغييب والإقصاء.

بعد التغيير الذي حدث مابعد ٢٠٠٣ عاد الخائن الطيار إلى العراق ليحصل على الأوسمة والأنواط والنياشين، وليكرّم كبطل وطني ويُمنح الأموال والأراضي والضمانات التقاعدية، عاد من حيث يقيم الآن في دولة (السويد) ليسرق ابنتي الوحيدة وليأخذها منّي بلعبة أخرى ومؤامرة خبيثة مرّرها عليّ بدهائه ومكره وخياناته الأبدية. في العراق فقدتُ الكثير من شبابي وحياتي وأحلامي، وفي سوريا فقدتُ ابنتي، أنا الآن في كندا سأستعيد كلّ شيء، سأستعيد كلّ شيء بكتابي هذا، سأصلهم جميعا، الذين أعاقوا مسيرة حياتي وحياة الكثيرين من أبناء وبنات بلدي، سأفضحهم وأنا أسرد كلّ ماليَ وما عليّ وسأسمي

الأشياء بأسمائها دون خوف أو تردّد، لم أعد تلك البنت الصغيرة المتعثّرة بالوصايا والقيود الاجتماعية والدينية والسياسية الغبيّة التي عتّمتْ نظري ونظر أجيال متعاقبة في بلدي المظلوم المحكوم بتلك الحكومة العراقية الفاشيّة الساقطة.

(ظهيرة القبض عليّ ١٩٩٧)

لاشيء، إنه أمر بسيط، مجرد تحقيق سريع وتعودين لبيتك.

هذا ماقاله الضابط الذي اقتادني للسيارة المظلّلة والتي تعقبها مجموعة شبيهة لها. ساروا بي يحيطونني وكأنهم سيرفعونني من الأرض، أجلسوني بالمقعد الخلفي، كان بصحبته رجلان يشبهانه جدا، وآخرون أكثر شبها يتبعونه بسيارات مماثلة.

حاولتُ أن أسأل بكلمة، لكن الرجل الجالس قربي وضع يده على كتفي بقوّة:

ولا كلمة، ستعرفين كلّ شيء بعد قليل.

لم أعدّ أسمع شيئا، فقد تسارعتْ دقّات قلبي وأصبح نبضي يشبه طبلا أفريقيا يضرب بعنف ويرقص من حوله رجال سُمرٌ بشوارب معقوفة تشبه الخناجر. سارتْ بنا السيارة وخلفنا موكب طويل، وجدتُ نفسي عاجزة عن تصور سبب وجودي معهم! أين، إلى أين يأخذونني؟ ومالذي سيفعلونه بي؟ هل حدث شيء لـ (مُحمّد)، ترى ماالذي فعله؟ وما علاقتي أنا بما يفعله؟؟ أردد مع نفسي، ياالله أنجدني، لم أفعل شيئا. كنتُ في السادسة والعشرين، لكنني مازلتُ تلك الطفلة التي تعشقُ حضن أمّها ومداعبات أبيها وجمهرة الإخوة والأخوات والركض حول

الدار واللعب حدّ الإعياء مع أصدقاء الطفولة، الطفولة التي ماعاد لها أن تعود وما عادتْ لتكن سوى ذكرى عتيقة تشبه جسدًا تمّ دفنه.

أفكّر بهذا وأنا مازلت أعيش أحداث فلم مأساوي كنت أشاهده قبل مجيئهم بساعات، الفلم يتحدّث عن السجون وماتتعرض له النساء من وسائل تعذيب في إحدى الدول الدكتاتورية في أمريكا الجنوبية ... نزلوا يركضون كريح عاصفة وأنا بينهم كريشة خفيفة لاتقوى على الهبوط. لهم أصوات غريبة، أصوات مفزعة، في صمتهم وسكونهم ونظراتهم الجامدة، دائمًا ثمة أصوات تُرعب وتجعل القلب يخفق والفكر يضيع والعيون تُفرغ دموعها من الخوف والرهبة ...

بين دربكة الأحذية ونهيقهم، أسير بخطى مضطربة حيث يمسكني حارسان من يديّ بقوّة، قذفتني الأيادي بغرفة ضيّقة مظلمة وجدتني أنوح بها وأهذي بأسماء إخوتي وأمي وأبي وأسماء الله التي أحفظها، لم يسعفني أحد منهم بكلّ أسمائهم.

مرّ الوقت، أو في الحقيقة، مات الوقت، نعم، فلم أعد أشعر بالوقت وأنا في هذه الغرفة الظالمة المظلمة التي تتقارب جدارنها كتابوت، والتي أحاطتني بأذرع قاسية تجرجرني ذات اليمين وذات الشمال وأنا أصرخ وأستغيث، ولامجيب.

هل هي لحظات، أم ساعات، أم دهور سحيقة؟

وأنا أنتظر أن يحدث شيء!

وأنا أتذكّر كلمات الضابط (لاشيء بسيطة .....)

أحاول أن أتسلق المكان الحديدي الحجري الضيّق اللعين، لأصرخ وأجعل أمّي تحضر وتأخذني إلى حضنها، أن أجعل أبي يركض نحوي وينقذني من الموت كما يفعل عادة وهو يسعفني أثناء سقوطي عند ممارستي هوايتي بتسلق الجدران.

لاشيء، نعم لاشيء تماما، مثل ما نطقها ذلك الضابط اللعين.

مات الوقت، وسألحقه بهدوء، دون شاهد على موتي ودون أن أعرف سببا لكلّ هذا!

وهُم يأخذونني من البيت كان ثمة هاجس في داخلي، يقول هي النهاية، النهاية التي ستفصلني عن كلّ مابقي لي في هذه الحياة، النهاية التي ستجعلني أنسى اسمي وملامحي، كذلك أسماء وملامح أهلي وابنتي الوحيدة ذات الثلاث سنوات التي غادرتُها مجبرةً. فراق ابنتي هو النصل الذي يحزّ قلبي ويجعلني أبكي بدموع نهر يشبه دجلة الذي ماعاد لي أن أراه ثانية. هل أرى مدينتي مرة أخرى؟ بغداد بشوارعها وناسها وضجيجها، بكلّ ماتملك من جمال وقبح وحب وكراهية.

بغداد الغارقة بالوهم، الرافعة شعارات لاتتناسب وحقيقة مايجري خلف الكواليس، بغداد مدينتي التى لا أعرف غيرها، كيف سأراها بعد الآن؟ وهل حقا سأراها؟... أهل بغداد أهلي، أصدقائي القليلون وأقاربي الذين لاأكاد أعرفهم، أينكم؟

أينكم يا أهل بغداد؟ هل تعلمون بما يجري لبنت عمران؟، بنت عمران الحلوة المدللة التي كانتْ تتلصص العيون لرؤيتها حيث تمرّ في طريقها إلى المدرسة، بنت عمران التي كانتْ تسمع كلمات الغزل

والإعجاب من الجميع ذكورًا وإناثًا، كيف تتركونها هكذاوحيدة في ظلام الزنزانة وفي عزلة مخيفة تحيطها ذئاب ومخلوقات شيطانية لا أعتقد أن الله ساهم في وضعها على هذه الأرض؟.. آه من هذه الأرض، كم تحمل من ظلام وظلم ... أنوح بكلّ معنى النواح وأذكّر بكل دقّة من دقات قلبي اسما لله وأطلب العون منه، لكنني لا أواجه إلّا المزيد من العذاب والرعب والألم.

يتهامسون فيما بينهم، كلمة رئيسية تحلّق وتتطاير (سيدي، سيدي، الكلّ يردد سيدي) لا أعرف من هو السيد ومن هو العبد، أختنقُ بهذه الكلمة التي أصبحتُ أردّدها كلما رأيت أحدًا يقترب منّي أو قبضةً تندفع تجاه وجهي... السيد الوحيد المتسلّط الشامخ بصورته على جدران الغرف وفي واجهة المكاتب والبنايات، هو السيد الذي ينظر إليّ من نافذة لها عيون مزروعة برؤوس الضباط والحرس والقوادين الذين امتلأتْ بهم أرض العراق شمالًا وجنوبًا، هو السيد الأول والمسؤول عما يجري لي في هذه الزنزانة وعما يجري للناس جميعًا في زنزانة ضيّقة اسمها العراق.

التحقيق الذي أجري معي غير مفهوم، كأنهم يتحدثون لشخص آخر، وكأنني تقمصتُ شخصية غيري كمحاولة منّي للدفاع عن جسدي الذي صار نهبًا للتعذيب والأذى، هي محاولة للدفاع عن روحي التي انقسمتْ بيني وبين ابنتي، وأفراد عائلتي وذكرياتي كاملة، الذكريات التي أراد لها القدر أن تتحوّل إلى ركام وظلام ووحشة تنوح

بداخلي وأتخيلها مواكب عملاقة لناس يلطمون ويصرخون ليس لشيء سوى إيذاء أجسادهم التي أصبحتْ فائضة لاتجلب سوى الألم.

الوقت الذي تحوّل إلى جثة، أراه ينسحب كثعبان ميّت تجرّه إرادة قاسية، تأخذ به إلى ظلمات وألغاز وألم لاينتهي، الوقت الذي هو عمري المثلوم الضائع في هذا البلد الذي ينسحب مع الوقت إلى الغموض والعدم.

صرخ أحدهم:

سيدي، سيدي، سيدي.

نظر السيد إلى الذي جنبه:

سيدي، سيدي، سيدي..

استمرّ الجميع بالقول، لتكتمل الدائرة وليتوسطها رجل أشقر جدًا بعين تكاد تكون بيضاء، عين واحدة، وعندما استدار كانتْ له عين أخرى بيضاء أيضا، وجه هذا الرجل لايمتّ بصلة للإنسان، فقط صوته كان يشير لذلك. اقترب منّي واضعا يديه على كتفيّ، هزّني بقوّة وهو يبتسم قائلا:

خونة، كلاب، سأفرم جسدك، سأحرق وجهك الحلو هذا، ها ها، سوف أجعلك تتمنين رؤية الضوء، سأبعدك عن الشمس، سأدفنك في الظلام قبل ذلك سأجلب ابنتك الجميلة، طفلتك المدلّلة وسأجعلهم يفعلون بها أمامك.. ها ها، ما رأيك أيتها القحبة،، هاااا.

في آخر حرف نطقه كان في كلمة الاستفزاز المختصرة التي يستخدمها الجميع (هاااااا) بقيت الآه، لأن الهاء تنحرف وتتأخر عن

الألف لتكون الآه، الآه التي لم تفارقني منذ أن فتحت عيني على هذا الكابوس الذي لا اسم له. عاد الرجل معاينا صفّ الجالسين الذين ابتسموا له إعجابًا بمقترحه، عاد بنظره اليّ. لم أشعر برعب في حياتي إطلاقا كمثل هذه اللحظة التي أرى بها هذا الكائن الباهت، بعينيه البيضاوين اللتين يتخللهما ضوء أصفر كأنه بؤبؤ - قطّاف الأرواح - الملاك الذي خلقه الله ليقتل أبناءه من البشر. كان يتكلّم بسرعة وبصوت مختلف عن أصوات الجميع، عيناه بلونهما الغريب تتكلمان أيضا، ويداه تلوّحان وتهددان. وهو يحرّك شفتيه وتقاسيم وجهه، أشعر بأنني فقدتُ السيطرة على حواسي، أرى ابنتي أمامي وهم يمثلون بها،

هولاء الرجال، الضباط، حُماة الوطن، يعتدون على طفلتي أمامي، صرتُ أصرخ وأتوسّل، وأردد كلمة سيدي آلاف المرّات: سيدي، لا، هي طفلة، أرجوكم بحق الله، اتركوها، أرجوكم ... ألتفتُ إلى الجميع وأناديهم واحدًا واحدًا، لكنهم يتضاحكون ويهمسون لبعضهم، قال الرجل الباهت:

إذن عليك بقول الحقيقة، قولي، وإلّا سأجلبها.. أين ذهب زوجك النغل؟

ماذا أقول، سيدي الله يخليك، ويخلي أطفالك، سيدي والله لا أعرف أي شيء، سيدي.

انتهى المشهد بصفعة أوقعتني أرضا، فقام بعضهم وبكلّ شهامة لمساعدة الرجل الباهت، وصاروا يتناوبون على ركلي بأقدامهم وسحبي من شعري الذي أصبح يتناثر في مساحة الغرفة الضيّقة، الغرفة

التي اتسّعتْ الآن كملعب كبير يتراكض به رجال أشدّاء، وأنا وحدي بينهم لا أملك سوى التوسّل وتحريك يديّ اللتين لاتسعفانني في تلافي الضربات المتتالية، وصراخي الذي يهوّن من شتائم السادة الجالسين يتابعون رجولة بعضهم في تعذيب بنت في أعمار بناتهم، يتابعون ويحرّكون أجسادهم مشجعين كلّ صفعة وكلّ لكمة أتلقاها من أعضاء فريقهم - ضباط الأمن والمخابرات والاستخبارات - ويصرخ الرجل الباهت:

إذن، لا ينفع معك شيء، سوف أرسل لأن يجلبوا ابنتك،، وكما قلتُ.

في هذه اللحظة انفصلتُ تماما، وصار لديّ شعور بأنني يجب أن أموت لكي أنقذ ابنتي، وطلبت منهم أن يقتلوني:

سيدي الله يخليك، اقتلني، اقتلني سيدي، إذا كنت رجلا اقتلني، اقتلوني، إذا بكم رجل واحد، فليقتلني. ابتعدَ الرجل الباهت بعد أن همس لهم بشيء، سحبني أحدهم وسار بي إلى الزنزانة.

تلك الظهيرة الساخنة التي نخفّفُ وطأتها بأجهزة التبريد التي لاتتوقف، كان بيت أهلي ملاذي الآمن الوحيد ومكاني الذي تنتعش به ذاكرتي، حيث أمّي وحضنها الدافئ وكلماتها التي تهوّن المصاعب. تلك الظهيرة الهادئة وأنا أشعر بأنني أنا (لميس) دون رقابة من أم مُحَمّد وأبيه، هربتُ من بيتهم ولجأتُ لبيت أمّي وأبي اللذين يشعرانني بمعنى الحنان والطمأنينة، حينها كنتُ أحلم بأشياء كثيرة تخصّني وتخصّ ابنتي، أحلام بسيطة ولذيذة، لكنها لم تدم سوى لحظات، حين طُرق الباب، وجاءني أخي وهو يرتعد، سرتُ معه حيث الباب وإذا بمجموعة ضباط

وسيارات مظلّلة: لاشيء، إنه أمر بسيط، تحقيق بسيط وتعودين لبيتك.

حاول أخي أن يسأل، أو يحضر معي، لكنهم زجروه، قال الرجل العابس:

أختك في الحفظ والصون، الرئيس القائد ٠ (صدام حسين) شخصيا طلبها للتكريم، فابتسم أخي محاولا تهدئة نفسه، لكن الرجل سحبني خارجًا وقال:

أغلق الباب ولا تحاول التدخل بعملنا.. قال أخي:

لكن هي بنت ولابد أن يكون معها واحد من إخوتها في الأقل.

ابتسم العابس بوجه معدني:

لاتخاف كلنا إخوتها، هي بنتنا أيضا.

أغلق الباب بوجه أخي وكأنه أغلق صفحة حياتي بشكل نهائي.

كأنها حكاية تتناسل في فلم من تلك الأفلام التي كنت أشاهدها مع عائلتي في فقرة - فلم السهرة - حيث كان الهدوء يخيّم علينا، فيما أنا أرحل بمخيلتي متقمصّة شخصيات الفلم، فأعيش آلامهم، نعم سأعيش بطولة فلم صنعه قدر لعين وتعاون على أدواره رموز الشرّ من ضباط وجنرالات لارحمة لديهم ولا أخلاق، سألعب دور الضحية بشكل مطلق وحتى الموت.

(تحقيقات أوليّة)

استمرّ التحقيق معي لأيام متواصلة، لكنني مازلت لاأفهم ولا أعرف ماهي تهمتي الحقيقية. إلى أن جاءتْ اللحظة التي حضر بها جنرالات برتب أعلى وبينهم شخص طالما رأيت صورته في الصحف والأخبار. اقتادوني هذه المرّة بتهديد مختلف وكأنهم سيعدمونني بعد هذا التحقيق المرتقب!

قال الرجل الغاضب الذي يبدو أنه يريد إنهاء الموضوع بسرعة:

اسمعي يابنت، إذا كنت تريدين الخروج من هنا بسلام، أجيبي على الأسئلة بصدق ودون لفّ ودوران.

وأعقبها بصرخة (زين).

لم أجبه لشدّة ارتباكي فبقيت محدّقة بالرجل الذي كان ينظرني ويبتسم ربع ابتسامة تبدو وكأنها تهديد، لكنني كنت أتوسم به خيرًا، فهو وزير ورجل كبير، نعم أكيد أنه سيفهم الأمر وسيساعدني.

أردف الرجل الغاضب:

هل تعرفينه؟ مُشيرا بطرف عينه إلى الوزير.

لم أجرؤ على النطق، اكتفيتُ بهزّ رأسي كإشارة نعم.

واستمر الرجل:

السيد الوزير شخصيا حضر اليوم وبتكليف من السيد الرئيس صدام حسين، وهنالك وصية لمساعدتك، فقط نريدك أن تجيبي على الأسئلة بصدق ووضوح، (زين).

هززتُ رأسي بالموافقة.

تخطّى الرجل بضعة أقدام واقترب من الوزير موشوشًا له بكلمات لم أسمعها. فجأة دخل رجال برتب مختلفة تتوسطهم بنت شابة رشيقة يبدو عليها الذعر. أجلسوها في مقدمة المكان، وأحضر أحدهم بعض الأوراق سلّمها للوزير وهو يردد: سيدي، سيدي، هي خطيبة الخائن (إحسان ع). نظروا إليها وأشار كبيرهم أن يأخذوني إلى جانبها. تركونا معًا وصاروا يتحدّثون فيما بينهم وكأنهم يفسحون لنا المجال للحديث.

همستْ لي:

هل تعرفين شيئا عن الموضوع.

أي موضوع..!

مصيبتنا، نحن في خطر، لقد هرب زوجك وخطيبي بالطيارة وغادرا العراق.

كيف عرفتِ؟

هم أخبروني، ألم يخبروك؟

لا.. هم فقط يضربونني ويريدونني أن أعترف..!

تعترفين بماذا؟

لا أعرف!

نحن في خطر، هم خونة ونحن من سيدفع الثمن.

مَن هم الخونة؟

زوجك وخطيبي، الله لايوفقهم، دمّرونا..!

تبادلنا بعض الكلمات والأحاديث السريعة التي زادتْ من قلقي وتوتري، وكأنهم يتنصّتون على مانقول.

أمرهم الكبير أن يأخذوا البنت الشابة إلى غرفة مجاورة، وانتبه لي مبتسمًا:

يالله، نبدأ، كيف بدأتم بالفكرة والتخطيط، ومن ساعدكم بها؟

مَن هي الجهة الأجنبية التي تتواصلون معها؟

مَن كان يزوركم ويعقد الاجتماعات في منزلكم؟

أين ذهب زوجك بالطائرة؟

أي بلد بالضبط؟

وماهي الفكرة؟ يعني كيف اتفقتما ؟ أقصد كيف ستلحقين به؟ وأين؟؟ ومتى؟

ماهي علاقتك بـ (إحسان) ... لعلمك نحن نعرف كلّ شيء، فلا تحاولي اللف والدوران، ها..!

كان يمطرني بالأسئلة دون أن ينتظر منّي جوابًا.

قلتُ بصوت يرتجف:

سيدي والله العظيم ما أعرف، ما أعرف أي شيء ....

وأقسم لهم بالله وبكل المقدّسات، لكنه يصرّ على إعادة الأسئلة، وأنا أكرر الإجابة حتى شعرتُ بالإغماء، فأيقظوني بالصراخ والتهديد.

صرخ غاضبا:

سأريك ماهي نتائج الكذب الذي تمارسينه علينا، سأجعلك تندمين. وأمر بإحضار الشابة التي في الغرفة المجاور لتجلس قربي.

أخذ يكرّر الاسئلة علينا ونحن نجيب نفس الإجابات، وهي أننا لانعلم شيئا.

عمّتْ حالة من الغضب بينهم عندما قلتُ:

سيدي إذا أنتم تعرفون كلّ شيء، ولديكم كل المعلومات كما تقول، لماذا تسألوننا؟

فقال الوزير بصوت يشبه صوت مذيع يظهر على قناة ٩:

شوف كيف أنها محضرة الأجوبة،

وكأنه يقول هذا دليل على المؤامرة المشتركة والإدانة المبينة لضلوعي بعملية هروب طيارَين مقاتليَن من دفاع الجو العراقي، وكأنني أنا وحدي، أنا البنت التي في بداية العشرينيات، أنا المسؤولة الوحيدة عن هذا الجرم وهذه الخيانة العظمى التي ألحقت العار بالحكومة العراقية والقيادة العظيمة.

استمرّ التحقيق ساعات طويلة، كلّ الذي دار به أسئلة لاجواب لها، أو في الحقيقة هي أسئلة على شكل مسرحية هزلية تتّضح أجوبتها بارتباك وانفعال وخزي يلحق بهم جميعا، كذلك الخوف الذي

يبدو عليهم كلّما ذُكر اسم القائد الأوحد وغضبه من هذا الحدث، ذلك الغضب الذي ربما سيطولهم ويلوي أعناقهم دون رحمة.

زمن طويل يموت أمام أعيننا، نحن جميعًا، أنا والشابة والسادة الضباط وأسيادهم الجنرالات وصورة القائد المعلّقة على الجدار الرمادي وبعض الحروف التي تمجّد الوطن، كلّنا كنّا نشهد موت الوقت وهو يمرّ علينا في هذه المسرحية الفارغة التي لاطائل منها ولامنفعة.

لا أعرف السرّ بالضبط، ومازلت أتذكّر ذلك بوضوح، كانتْ أعينهم وبرغم قسوتها وكميّة الشر المتطايرة منها، كانتْ تنظر إلينا أنا والشابة التي بجانبي بشيء من الانكسار والمذلّة، كنتُ أشعرُ بقلوبهم تخفق بقوّة وأرى غيومًا بألوان قاتمة تتطاير حول رؤوسهم،أثناء التحقيق والتحديق. أسأل نفسي عن سرّ هذا الازدواج الذي يلتبسهم، ماعساه أن يكون؟

هل هو خوفهم جميعًا من طائلة العقاب الذي يترتب على هذه الحادثة التي ألحقت العار بقيادتهم؟

أم هو محاولة استعطاف لسحبنا في أن نمنحهم بعض المعلومات التي تبعد رقابهم من مقصلة الرئيس؟، كونهم قيادة القوّة الجويّة العراقية وأن الهاربَين يعودان لهما في التشكيل والإمرة.

لكنني أتراجع بعد أن أتفرّس بهم، لأرى ملامحهم كاملة تنذر عن نزق وشهوة وخطوط تتقارب لتكوين جريمة قتل واغتصاب وتشويه وممارسة ساديّة وجنون وشرّ قاتم اللون يترصد جسدينا اليافعين.

فأخلد لسكوني وأنا أستعين بالله وأردد بداخلي أسماء الله الحسنى وبعض الأدعية التي حفظتها عن أمي وأتمنّى حينها لو أن الأرض تنشقّ وتبلعنا جميعًا كما يحدث عادة في الأفلام التي ينتصر بها الخير غالبا.

لم يتكلّم الوزير كثيرًا، أو لعله لم يقل سوى ملاحظته الوحيدة التي يعتقد أنه شخّص الدليل على إدانتي بها. ذهب منزعجًا بعد أن كلّمهم بغضب، كانتْ يداه تتحركان بقوّة ارتفاعًا وهبوطًا، يصرخ بهم بصوت لا أستطيع استفهام مفرداته، وكان يشير لصورة الرئيس المعلّقة فوقنا، وكأنه يهددهم بها أو يقسم لهم بها على أنه سينتقم من الجميع على أثر هذه الخيانة التي هزّتْ أركان البلد وشوّهتْ صورتنا أمام القائد.

أخذوني بسيارة خاصة بالسجناء، لمحتُ ذلك خطفا قبل أن يربطوا عينيّ بقطعة قماش محزّزة بسلك خشن. جلستُ على مقعد صلب لامساند له وتمسّكت بجانبي المقعد خشية السقوط. أشعر بأنني وحدي في حوض السيارة الخلفي الذي تخيلته شبّاكا له قضبان كالذي يقف عنده عادة بطل فلم السهرة وهو ينظر إلى الشوارع متخيلا حياته بلحظات.

حاولت إخراج طرف عيني لأستوضح المكان، لم أر شيئا، كان الظلام دامسا في تلك السيارة اللعينة التي تشبه قبرا يسير بعجلات مجنونة السرعة.

سارتْ السيارة لربع ساعة أو أكثر، كانتْ فترة كافية لأن أتذكّر حياتي كاملةً بكلّ بؤسها وألمها، أقول مع نفسي كيف لحياة

طويلة أن تتكرّس بدقائق، دقائق فقط هي التي تستعرض كلّ ماتضمنته تلك الحياة التي شوهتها شعارات الحزب وقضتْ عليها خُطب وقرارت القيادة بكلّ رعونة وبطش.

بدأ شعور غريب ينمو بداخلي، وأنا أتخيّل نفسي بطلة أحد الأفلام الثورية التي كانتْ تبثّ الحماس بقلبي وأنا أتابع البطلة وهي تسخر من النظام القمعي وتواجه التعذيب بالبصاق والهتاف وتدعو للثورة والتغيير والحرية للشعوب، لكن سرعان ما أنكسر وأبكي وأنا أتذكّر ابنتي (هدير) التي لاتنام إلا بحضني، تُرى كيف هي الآن؟

بقيتُ طوال فترة الليل في زنزانة ألمخُ من خلال فتحتها الأمامية الضوء أو الظلام، الظلام الذي بدأ يخيّم مستمرّا بختم ملامحه على المكان بكامله. ليل الزنزانة أو زنزانة الليل، هكذا كانتْ الحياة تبدو بالنسبة لي. لامجال لوضع مفردة أخرى لهذا التركيب العجيب. الليل المرعب الضاج بوحشية أصوات الجلادين والضحايا، صراخ وشتائم واستغاثات وشهيق ينذر عن إزهاق الأرواح، مطر ثقيل من بكاء وعويل يخيّم على هذا الليل في هذه البقعة العجيبة من أرض الله. جثث تُسحل من الغرف المجاورة في الممرّات،أجساد لاتبدو ملامحها، أجسام هافتة أو رافسة برمق أخير وحرّاس ينتصبون بكل حزم ووطنية يضربون ماتبقى من مخلفات الأرواح في تلك المخلوقات وهم يشتمون بأقبح ما جاءتْ به اللغات. أقبعُ في مكاني لافّةً جسدي بدعاء متسارع وأهذي بداخلي وأتوسّل إلى الله أن يسعفني أو يوقظني من هذا

الكابوس، لكن الله يتأخّر، كأنه لايسمع وكأنني لا أقول شيئا. أسمعهم يصرخون:

اعترف، سأقلع عينيك..!

سيدي أقسم لك لا أعرف شيئا.

ولك نحن نعرف كلّ شيء، اعترف أحسن لك، نعرف أنك أنت من كتب على جدران المرحاض.

سيدي والله لا أعرف عن أي شيء تتحدث!

اعترف، على الأقل تخفّف عن نفسك العقوبة، إذا بقيت صامتًا ستذهب للإعدام..!

سيدي الله يخليك، لادخل لي بما تقول.

لكن أنت مشبوه ومشخّص منذ زمن بعيد، أنت ضد الحزب والقيادة، أنت عميل وتستحق الإعدام..!

كيف تكتب اسم الرئيس في المرحاض، وتشتمه وتدعو للإطاحة به؟

أنت تستطيع الإطاحة بالرئيس ياندل، سوف لن تخرج من هذه الغرفة إلا بعد أن تعترف أو تموت.

سيدي أرجوك، لاأستطيع التنفس، أبعدهم عنّي قليلا، لا أستطيع الكلام!

سيدي أريد محامي..!

تريد محامي، راح أجيب أمّك ومرتك وأختك، وأجعلهم يدافعون عنك بكلّ الأوضاع.

صراخ، صراخ، صراخ. أصوات ضرب كأنه القصف الأمريكي على بغداد في حرب الخليج، أعوي بصوت دفين وأتمنى لو أملك جسد سلحفة، أغلق على رأسي وأختفي في هذه اللحظة. لافائدة أبدًا سأبقى هنا حتى الموت، هي النهاية، النهاية التي شممتها في أول لحظة عندما رأيت الضابط الشؤم وهو يردد (إنه أمر بسيط، تحقيق سريع وتعودين).....

الغرفة التي وضعوني بها فارغة، مظلمة، وتفوح منها روائح أرواح أزهقتْ من التعذيب. رطوبة لزجة كأنها دم يتسامى في فراغ تنوح به أشباح متزاحمة. لاشيء سوى كرسي وضعوه كشاهد لذكرى الضحايا الذين مرّوا وجلسوا منتظرين حتفهم في هذه الزنزانة الخالية من النور.

مرّ الليل طويلا ككابوس متواصل. غيبوبات متواصلة واستيقاظات مُفزِعة، أشبه بفلم مطاردات صاخب لاينتهي.

مرّتْ من أمامي عشرات الجثث مسحولة إلى الممر، ممر معتم كأنه طريق الموت الذي يفضي إلى المجهول، موتى، ومحتضرون يتشبّثون ببقايا الهواء العالقة في فراغ المكان، ينوحون ويتكلمون بألسن مبتورة فتخرج كلماتهم غامضة تبعث في هذا المكان ظلاما آخر لتكتمل في مخيلتي صورة السواد والوحشية التي وَجدتْ لها رحما لتنمو به وتتعملق في هذا المكان المريع التابع للأمن والمخابرات والاستخبارات والدعارة القمعية.

بدأ الضوء الشحيح يتراءى من ثقوب سقف الممر، كأنه الصباح، وكأنني غير مصدّقة أن يكون لهذا المكان صباح كبقية بقع الأرض..!

وجوه جديدة أكثر غلاظة وعُنف من مجموعة الأمس. وقع أقدام ودربكة، سيدي، سيدي، سيدي، سيدي، سيدي، سيدي، سيدي، سيدي، سيدي. أصوات كثيرة متشابهة وغير متشابهة تصدح، سيدي..

الحارس يقول للضابط، والضابط الصغير يقول للضابط الكبير والكبير يقول للأكبر والضحايا للجلاد والجلاد للقائد،، الكل يصرخ، سيدي، سيدي، كأنها كلمة الخلاص أو طوق النجاة التي تبعد العقاب وتجلب السلام والأمن لمن ينطقها. أما أنا فأرددها آلاف المرّات لربّي الذي أرسم صورته بداخلي وأتحسسه نورًا ساطعا سيفيض حتمًا ويأخذ بيدي خارج هذه البؤرة التي لاتمتّ بصلة له.

اقتربتْ الأصوات والدربكة من باب الزنزانة.

اخرجْها، اجلبها إلى غرفة التحقيق، قال هذا وهو يضحك ممازحًا أحدًا، يبدو أنهما كانا قريبين من بعض، وأردف: اجلب لنا الشاي.

نعم سيدي.

اعملوا القهوة، فالسيد الآمر يحب القهوة.

نعم سيدي.

اجلب البنت وأخبرهم أن يحضّروا غرفة التحقيق.

أمرك سيدي.

يضحك، سمعت أنها جميلة، ها والله زمان طويل ما محقق مع الحلوات هههه.

أي سيدي حلوة وصغيرة.

اقترب الحارس بوجه أسمر مزرّق وشوارب مدهونة بسم الثعابين، سمعته يقهقه ويمزح ويضحك مع سيده، لكنه عندما اقترب وفتح الباب رأيتُ وجهه، كان وجها أسود لم يضحك في حياته إطلاقا، هذا ماتقوله ملامحه الضاربة بأعمق حالات القسوة وأقصى نوبات الإجرام والوحشية.

تفرّسني بعينين مشوّهتين وظل محدّقا بوجهي بشكل مفزع، حاولتُ أن أتحاشاه، وقفتُ وتخطيت لجهة الباب، أمسكني من يدي وسحبني بقوّة، فصرختُ من شدّة الألم، دفعني خارجا وهو يردد:

لم نفعل شيئا، الشيء الذي يؤلم سيكون هناك، مُشيرا لغرفة التحقيق.

أدخلني الغرفة التي تبدو أكبر من الزنزانة بقليل، غرفة مخنوقة، تفوح منها رائحة اللعنة،تحتوي طاولةصغيرة وكرسيًا ... يجَلسُ أحدهم وأمامه بعض الأوراق، بينما الرجل الآخرالذي يبتسم يرفع يده مُرحبا:

أهلا بالعروسة.

وقفتُ كتمثال، شيء يقترب من رأسي، نظرتُ لأشاهد حبلا مربوطا بكلاب حديدي إلى السقف، حبل ينزلق من السقف متدلّيا مُنذرا عن العاقبة التي سيكافأ بها من لايقول مايريدون.. قال:

أهلا حبيبتنا، شوفي أنا مكلّف بالتحقيق في قضيتك، أريد أن أساعدك أولا، ها، أنت بنت صغيرة وحلوة وبنت عائلة، وأنا شخصيا من خلال اطلاعي على الأوراق أعرف كلّ شيء عنك الآن، فساعديني وتجاوبي معي وأعطيني الأجوبة المطلوبة وأنا أقسم لك بشرفي ستكونين بأمان وتخرجين من هنا بسلام.

شعرتُ بغبطة وأنا أسمع كلماته التي كانتْ مؤدبة، أخذتني كلماته إلى أمل، سيما وأن صوته قريب إليّ جدا فهو يشبه صوت أخي الذي كان آخر شخص رأيته قبل المجيء بي إلى هنا.

ابتسم بوجهي وردد:

جيبوا شاي.

أحضروا الشاي وضعوه أمامي، كانتْ لدي الرغبة بشربه، لكن يدي ترتعش ولاتقوى على إتمام عملية فعل الشرب.

حدّق بي وأطال النظر وهو يتفحصني واضعا عينيه على صدري:

كم عمرك؟

لم أستطع النطق، لكنه أردف ضاحكا:

أعرف كل شيء عنك، لاداعي.

هل أكلتي شيئا؟

لم أجبه حتى بإشارة.. كانتْ تسيطر عليّ حالة غريبة، كأنني أنتظر صرخة عملاقة بداخلي تؤدي إلى تفجير المكان والمدينة والعراق والكرة الأرضية.

ظلّ صامتا محدّقا متأففا:

اسمعي يابنت، سأحاول مساعدتك، لكن بشرط، ها، شرط أنك تتعاونين معي وتجيبين على الأسئلة، تعترفين بشكل بسيط، ثم تذهبين إلى بيتك وبنتك وحياتك، وصدقيني سنمنحك مكافآت وهدايا، ها.. أما زوجك الخائن فنحن له، ونعرف كيف نأتي به، المطلوب منك إجابات سهلة ومعلومات بسيطة عن مدى معرفتك بهذه الجريمة..

بدأ صوته يأخذ نبرة مختلفة:

هل تريدين طعاما؟

أجبته بالنفي بهزّة من رأسي.

إذن اشربي الشاي، يالله، هاكِ.

وضع الشاي أمامي، فأمسكته بيدي الاثنتين واحتسيت منه قليلا.

نعم، الآن نبدأ، أين ذهب مُحَمّد؟

قلت بصوت مخنوق: لاأعرف.

لكنه نظر إليّ مقربًا وجهه منّي وكأنه سيلامس وجهي:

قلنا عليك أن تتعاوني وتساعديني بالأجوبة، سيكون الأمر سهلا، صدقيني

- أين ذهب مُحَمّد؟

- والله ما أعرف، ماأعرف، أنا كنت في بيت أهلي، زعلت منه وذهبت إلى بيت أهلي، وأنا أصلا، أصلا قررت الانفصال عنه.

- انفصال، لماذا؟ هل طلب منك الذهاب معه ورفضتي؟

- لا، هو يحكي مع البنات في التلفون، هو يخونني مع بنات، دائما أضبطه متلبسا بالخيانة.

- ماذا عن خيانته للوطن؟

- ما أعرف.

- تعرفين عن علاقاته مع النساء وخياناته لك، ولاتعرفين عن علاقاته مع العملاء والأعداء لخيانة الوطن.

- والله لاأعرف شيئا عن هذا.

- لابد أن تقولي شيئا بهذا الخصوص،

- أي خصوص؟

بدأ صوته يرتفع دلالة الغضب:

– لا، لا، لاتضطريني أن ألجأ لطريقة تجعلك تندمين..!

- لكنني ياسيدي والله لاعلم لي بشيء إطلاقا عن هذا الموضوع.

- ليس من المعقول أنه خطط ونفذ كل هذا الفعل الخطير دون أن يمرّ عليك شيء منه، ها، تريدينني أن أصدّقك؟

- نعم والله، أقسم لك والله..

- اسمعي يابنت، يبدو أنك عنيدة وستجعلين الأمور صعبة عليك أولا وعلينا ثانيًا، سأمنحك دقائق لمراجعة نفسك وذاكّرتك، تذكّري بنتك، ها، وما يمكن أن يحصل لها وهي الآن من غير أم ومن غير أب، ها.

انسحب إلى الخلف وبدا لي بهيئة عملاقة واتّسعتْ عيناه لتتحولا إلى ساحة كبيرة مليئة بالجثث التي سحلوها من ذلك الممر الغامض ليلة أمس، رأيت جثتي وجثة ابنتي (هدورة)، لكنني لم أر جثة

مُحمَّد، مُحمَّد الذي غدرني وتركني عرضة لهذه الكوابيس التي لايمكن لأحد أن يتخيلها في هذا الكون.

علّقوني بالحبل، لفّوا الحبل على معصميّ بطريقة لايتقنها حتى الشيطان، وارتفعتُ، صرتُ أرى رؤوسهم وهي تتحرك مع ارتفاع السياط التي بدأت ترسم خطوطها على جسدي. شعرتُ بأنى سأفقد يديّ. كفّاي ستنقطعان..!

كانتْ بي رغبة لأن أراهم، أرى ملامحهم، كيف يبدو أحدهم وهو يمارس هذا الفعل؟

كيف يبدو الرجل وهو يضرب بنتا من عمر أولاده وأخواته؟

هل لديهم أولاد وأخوات وبيوت وزوجات وأمهات؟

أعلم تماما أنهم يعرفون أنني لا أعلم بشيء عن فعلة مُحمَّد الحقير، - مُحمَّد الجبان - حسب أقوالهم وهو القول الوحيد الذي أتفق معهم به.

بدتْ اللحظات الأولى من الضرب وكأنها رصاصات تخترق جثتي، سياط تشبه طلقات النار وصراخي الذي كان يتمّم المعزوفة التي يطربون لها. كأنني أنتظر أن أهدأ وهي لحظة الموت، لكنني كلما ازداد الضرب ازددتُ طاقة أكبر ويعلو صراخي بشكل كبير، صراخي صار أعلى من أصواتهم وأقوى من سياطهم، أشعر وكأنني أنتصر عليهم بالصراخ، صرتُ أصرخ وأصرخ وأتخيلهم يتساقطون أمامي كالذباب الذي كانتْ أمي ترشه بالمبيد، لم أعد أحتمي بأسماء الله، حتى الله فرّ مرعوبا هاربا في تلك اللحظة، هربوا جميعهم بعد أن أصابهم الإعياء

من الضرب وتلقي الصراخ، لكنني بقيت أصرخ وأصرخ وأصرخ وأصرخ وأصرخ.

(الكرسي)

لم تكن أياما، بل كوابيس عمر يمتدّ لقرون ضوئية.

لايشاركني هذه الغرفة سوى كرسي صلب يشبه وجوه الحرس القاسية... في الصباح الباكر يسحبونني إلى غرفة التحقيق. نفس الأسئلة ونفس البرنامج يبدأ بالصراخ والتهديد وينتهي بالضرب المبرح المؤلم الذي لا يُحتمل. وأتذكّر دائما وطيلة فترة مكوثي ما أقوله لنفسي منذ البدء عن - موت الوقت - وكيف أن الزمن توقف وأنني صرت أشعر بتعفن جسدي وتآكله، سيما وأني لم أستحم أو أغسل وجهي لأيام متواصلة. ينظرون إلي بين حين وحين، في هذه الغرفة القبر. لابد أن أكون جالسة على الكرسي، وإذا حاولت أن أضطجع على المساحة الصغيرة من الأرض الرطبة، فإنهم سيصرخون جميعا رافضين. لابد من الوقوف، أو الجلوس على الكرسي وإلا فالعقوبة هي السياط والضرب الذي لاينتهي.

يبعثون لي حارسا بعض الأحيان يصحبني لغرفة مجاورة، يكون هذا في الليل، حيث يجلس بعض الضباط في اجتماعات مليئة بالسجائر وأقداح الشاي، ضباط برتب مختلفة تتطاير منهم كلمة سيدي، سيدي، سيدي، سيدي. أقف كعادتي مذعورة مُهيأة للبكاء. ينظرون إليّ بعيون متوحّشة مليئة بالشر والشذوذ. يبدأون بإعادة نفس

الأسئلة غير مبالين لما أقول وما لاأقول. يضيع حوارنا وأصواتنا مع صراخ الضحايا والمساجين في الغرف المجاورة، يعيدون الكرّة.. تعذيب لاطائل لهم به سوى التسلية وإشباع رغبة المجرم الذي تتربّع صورته مشهد جلستهم.

أصبح المشهد مألوفا بالنسبة لي، وتأكدتُ أنني قد تروّضتْ وأصبح جسدي على مناعة كبيرة وقوة لم أكن أتوقعها في التحمل والعناد.

أصبحتْ علاقتي بهذا المكان مرتبطة بهذا الكرسي العنيد الصامد الذي لاتهزّه مأساة المساكين والضحايا والمجرمين، فبعد كلّ وجبة تعذيب أعود متهالكة لأرتمي في حضنه ويكون هو جاهزا فاتحا ذراعيه الصلبتين محتويا إياي، كأنه يُشير اليّ بحركات ويحاورني بكلمات واضحة

فأسند ثقلي عليه وأنوح. صار لزاما علي أن أجلس عليه فقط، هو جزء من العقوبة والتلذذ بالتعذيب بالنسبة لهم، لكنني صرتُ أراه مثلي وأشعر به ككائن حي له ذاكرة مليئة بالأسى، فلطالما وضع الضحايا أثقالهم في حضنه ولطالما سمع نواحهم وأدعيتهم وخفقات قلوبهم. هذا الكرسي الذي تمنيّت ألا يكون هنا أبدا، هذا الكرسي الذي صار يشاركني الدعاء ويشعر بي ويتمنّى لي أشياء أشعرها وأرددها مع نفسي.

أحلم أحيانا، أن أخرج من الكابوس فيشاركني حلمي، حيث أجلس عليه وأنا أحكي مع ابنتي، تتراقص ابنتي وتدور حوله ناظرةً إليه كرفيق لأمها في رحلة الظلام هذه. تسألني (هدير) عن أشياء كثيرة

كلّها تتعلق بجلستي الصلبة، فأحكي لها عن الكرسي، لأنه الملاذ الوحيد الذي أجد فيه حضنا يحميني من الضرب والتعب و ألم الوقوف.

عندما يسحبونني إلى غرفة التحقيق ويمارسون عملهم المعتاد بالضرب والتأليم، ألمحهُ من خلال فتحتي البابين المتقابلين، فأتمنّى أن ينهوا مهمتهم بسرعة كي أذهب وأرتمي عليه، فهو ينظرني وكأنه يلهمني الصبر حين يهمس مشيرا إلى مكان مكوثي في حضنه، هذا الكرسي الذي لا أعرف ماهو السرّ الذي جعلني أعتبره ضحيّة مثلي وربما أكثر، وأشعر به ويشعر بي.

هزلتْ صحتي ونحفتُ كثيرا، لم أذق الطعام لأيام طويلة وأكتفي بالماء. يجلبون لي خبزا ومرقا أصفر له رائحة البراز، أتمنى لو أرميه بوجه الحارس، لكنني أركنه جانبا ليأخذه في المرّة القادمة. أصبحتْ مساحة الكرسي تتّسع وتّتسع مقارنة بالحيّز الذي بدأ عليه مقعدي، نحفتُ وتعفّنتُ وصار جسدي هزيلا لدرجة ان الكرسي لم يعد يشعر بثقلي عند الجلوس.

في إحدى الليالي وأنا أهرب بحلم قصير، جاءتْ أمي ومعها ورقة صغيرة، دفنتْها بيدي ورددتْ قبل أن تتوارى:

خذيها واقرأيها كلّ لحظة، ستنقذك.. إنها سورة الكرسي.

(أماكن العالم الضيّقة)

الأماكن قليلة في حياتي، هي عبارة عن مساحة صغيرة جدا لاتتناسب وكلمة حياة. كان بيتنا هو العالم، ومساحته الصغيرة التي تجمع عائلتي هي مساحة الكون بالنسبة لي. من خلال وجودي مع أهلي رأيت الحياة، وكانتْ عظيمة بما تمتلك من دفء ومودة وحنو، وكانتْ أمي هي النواة التي نتحرّك جميعنا حولها.

أمي بوابة هذا العالم ونوافذ البيت التي تمنح مخيلتي معنى الحب وتصوّر لي مايحيطني بألوان متفائلة.

أحلم بالخروج لأشاهد الناس يحبّون بعضهم من خلال أمي، وأرى الآفاق الواسعة التي رسمتْها أمي لكلّ الناس في هذا الكون، أراهم جميعا وهم يقدّسون الأمهات اللواتي يجلبن لنا الحنان والطمأنينة والأمان بحضورهن وأدعيتهن وجمال أرواحهن الطاهرات. أرى الله هالة ضوء تشعّ في غرفة أمي أثناء صَلاتها وأدعيتها، وأمتلك لحظتها الأمان والثقة بأنني قوية ولايمكن أن ينال منّي شيء. الغرفة التي تضمّ أمي كانتْ مركز الكون بالنسبة لي، وكنت على يقين بأن العالم يسير بإيقاع منتظم على ضوء ما تصنعه أدعية أمي وحواراتها مع الله، الله الذي يسكن بيتنا إكراما لها.

كنت أشكر الله كثيرا على مساحة بيتنا الواسعة وعلى سعة الساحات التي نلعب بها قريبا من دارنا، وعلى سعة الأحلام التي تجعلني أركض في سهول الحب العائلية.أنا و أخواتي وإخوتي تحت خيمة مليئة بالحنان، أبي وأمي حارسان يمنحاننا الطمأنينة ويجعلان الوجود أكثر جمالا وجدوى.

مرّتْ على البلاد حروب ومشاكل كثيرة، لكنها تكاد لاتبدو أمامي، لكوني محمولة على أطراف الدلال والحنان العائلي. شغَلَتْنا أمور عصيبة ومعقّدة بسبب الحزب والدولة والرئيس والجيش والحروب، لكنها كانتْ تمرّ ونحن بسلام وتحيطنا هالة دعاء أمي وبركات وجود أبي الذي لاأظن أن أحدا يملك قلبا مثل قلبه.

الأماكن ليست مساحات على هذه الأرض، وليست محطّات يحيطها سياج ونقيسها بوحدات قياس غبية! هي في الحقيقة سقوط النظر على مساحة الضوء التي تكثّف الشعور وتجعل المشهد عالقا في الذاكرة أبدا.

أتذكّر هذا وأنا أسمع صراخ ضابط التحقيق:

ستظلين هنا حتى الموت (مُشيرا بيده إلى زنزانتي، مكاني)

لم أكن أتخيّل أن تكون الأماكن مختلفة عن بعضها إلى هذا الحدّ، فكيف يمكن أن نطلق على غرفة التحقيق - غرفة - وهي تسمية لاتليق إلا بغرفة أمي الطاهرة المعطّرة بالبخور وباقات الرازقي والجوري وأسماء الله الكثيرة التي كانتْ تجعلنا نبكي خشوعا.

كيف لي أن أنظر إلى هذه الأرض التي أسير عليها الآن في هذا المكان المظلم الظالم وأحسب أنني أمارس المشي؟، في حين أن هذه الأرض يجب أن تُخسف وينزلق تحت أعماقها كل هولاء القتلة والجبابرة والسفّاحين.

المشي هو أن تنقل قدميك بخطى تقودك لشيء تريده، لالشيء يريد إيلامك وبعث البطش بجسدك وروحك، لابد لي أن أختار مفردة أخرى للمشي - في هذا المكان -.

الكلام ناقص واللغة شحيحة، وهذه الحروف القليلة تكاد تموت إزاء مايحصل في هذه المساحة البؤرة.

ضيّقٌ هذا العالم. نحن نتدافع بالأكتاف، نزيح بعضنا بقسوة للمرور، لكن إلى أين نحن ماضون؟

أغمض عينيّ وأهرب بذاكرتي خارج المكان، أرى مساحات كثيرة من مشاهداتي الماضية، وألهثُ راكضة بأحلام تتزاحم وتتباعد. أرى أهلي فردا فردا وأعانقهم بقوّة مع بكاء يؤلم العينين، أتلاقف ابنتي وأحضنها وأشمّها بكل ما أستطيع، فأشعر بالحياة وأتيّقن أن الزمن لم يمُت. تأخذني أمي لغرفتها، وتجلسني على سجّادتها وتقرأ لي سورا لذيذة وأدعية تجعلني أتدفأ وأسترخي وأنام كطفلة ... أغمض عينيّ، ليحدث كلّ هذا!

كيف يحدث هذا؟ مَن يستطيع أن يجيبني على هذا السؤال؟

يالله،، أنت الوحيد الذي لاتتركني، أنت الوحيد الذي تبقى مع المستضعفين، هذا ماكانتْ تقوله أمي دائما.

أين ذهبتَ ياالله؟

تحاصرني وجوههم الغاضبة وعيونهم المليئة بشرّ غامض، هؤلاء الرجال المحشوّون ببدلات زيتونية تفوح منهم رائحة الظلم وتتطاير من أفواههم بذاءة مزمنة تجعل قلبي يتفطّر ويتمنّى التوقف عن النبض.

نجوم على أكتافهم وأوسمة على صدورهم وكراهية في قلوبهم المعتمة. وملامحهم متأهّبة لاكتشاف لذّة تعذيب الآخَر، حيث تبدو انفعالاتهم واضحة بارتجافات على أطراف الوجه وغمزات العيون الجاحظة وانتصاب الشوارب السود التي تلّمع كذيول ثعابين مدهونة بسمِّ الشياطين.

وضعولي خرقة على الأرض لكي أنام عليها، وسطلا صغيرا مليئا بالماء للشرب، وجلبوا لي رزّا مطبوخا بشكل أفضل من سابقاته. أسمع كبيرهم يقول:

أعطوها بعض الطعام لاأريدها أن تموت الآن!

سمعته يقول هذا، وتيقّنتُ أنني ميتة في هذا المكان لامحالة!

سمعته بدقّة وإصغاء كبيرين، لكي أتأكّد أنه نفسه ذلك الضابط الذي يرعبهم عندما يحلّ في أوقات التحقيق المسائية، فيتراكض الجميع على ضوء إشاراته وهمهماته الغامضة التي تشبه خوار بقرة مريضة. فتتعالى كلمة سيدي، سيدي، سيدي.. وكأنهم سينشدون (طلع البدر علينا) فأنحني مع نفسي وأخاطب الأنبياء والأولياء وأذهب من خلالهم إلى جلالة الله، أتوسله أن ينقذني من هذا الكابوس ولو حتّى بالموت.

لاأريدها أن تموت هُنا. هو يقصد في الـ هُنا، هذ المكان، نعم هذه البؤرة الرثّة المليئة بأشباح الأرواح التي أُعدِمتْ ظلما والتي ماتتْ من فرط التعذيب والشتائم والمهانة.

هنا، هذا الهُنا، مَنْ كوّنه أيها الرب؟

هل يجدر بمثل هذا المكان أن يكون جزءا من خلقك أيها الرب؟

عُدْ ياربّي بمعجزة، معجزة صغيرة ودعّني أصدّق أن مايحدث الآن فعل صغير من أفعالك العظيمة أيها الرب.

غُرف متداخلة، وحرّاس كثيرون، وسجناء يتكاثرون مع تكاثر وعلوّ الصراخ. ألمحُ من خلف بعض القضبان والشبابيك وجوها شاحبة مليئة بألوان داكنة من أثرالضرب والجوع والقذارة واليأس.

يقول الضابط بصوته الخوار:

هذه البنت مكانها مو هنا، حلوة ها هههههههه. فيضحك معه جيش الحرس، ويكاد يصفّق البعض لهذه الملاحظة التي أثارتْ البعض منهم، فتحوّلتْ عيونهم إلى خيوط أشعة سينية تخترق جسدي وتعبث بنبضاتي وتقرّبني من دعاء جاهز على طرف القلب.

ياأمّي أين أنتِ الآن؟

في أي مكان، أنتِ، وأبي أين أنت؟

كيف لكما أن تتركاني هنا في هذا المكان الذي يفوق جهنم التي كنتما تهدداني بها؟،تتركانني وحيدة ضائعة سهلة

بصحبة هولاء الرجال القساة. تبقى الأماكن متشابهة، نفس الأزياء والنبرات والحركات. يتكاثرون مع اللحظات، تتغيّر توقيتات

أعمالهم وخفاراتهم، لكنهم حاضرون أبدا، ويشغلون الفراغ المخصص لهم في هذا المكان المفصّل على مقاسات سلوكهم وأفعالهم التي لايرضى بها الله ولا العباد.

أتوق لبيتي، بيت أمي وأبي وذكرياتي، لم يعد بيت مُحَمَّد صالحا لشيء، هو في الحقيقة لم يكن صالحا لشيء من قبل. مُحَمَّد زوجي الخائن، خانني عشرات المرّات وخيانات حدثتْ في بدايات زواجنا وهو يعلم أنني أرى وأسمع، خانني مع زبالة النساء اللواتي يعرضن أنفسهن في الشوارع، وهو الضابط الطيار في القوة الجوية العراقية، وفي زمن الحرب، هذا الزمن الذي جعل من الضباط يتبخترون ويستهترون متجولين بسياراتهم الحديثة وبدلاتهم الأنيقة ونجماتهم التي يرتدونها حتى في النوم من باب المباهاة ولفت الأنظار.

لم أشهد في حياتي مكانا آمنا الا بيت أمي وأبي، ذاكرتي للآن لاتخرج عن تلك الدار التي تحيطها أشجار خضراء على مدار السنة، عدا ذلك،كلّ الأماكن بالنسبة لي محطات فناء وبؤر استنزاف للحياة بكل ماتحوي.

أجول بنظري، كل شيء حولي في هذه المساحة الكريهة مُعَد بشكل شيطاني، بما فيها وجوه الحرس والضباط والعاملين هنا،، كلهم من صنع الشيطان!

أين الله من كلّ هذا؟

(عندما يتخلّى عنكَ الله)

بأصابع يدٍ واحدة تستطيع أن تقول كلّ شيء، هذا ما أثبتته التجربة الحيّة. يشير لهم بأصبع واحد (اجلبوها)، وبأصبع آخر يدفع قدح الشاي الذي أمامه، وبأصبعه الصغير ينظّف أذنه من شمع وقذارة تراكما عبر عصور، وبسبابته يؤشر جميع التُهم الموجهة للجميع، وهو يظن أيضا أن بأصبعه الوسطي يستطيع فضّ بكارة الوجود. ينظر صوبي ويبتسم ابتسامة ثعلبية، وكأنني أرى لسان الأفعى يرتعش بين شفتيه الغليظتين، أغمض عيني على اسم الله، لكن الله أيضا يهرب، لامفرّ لي من هذا الالتباس سوى البكاء، لاغير الدموع، الدموع التي أوشكتْ على الجفاف.

هو يفعل ذلك باحتراف، والآخرون يقلّدونه باحتراف أيضا. كنتُ قد سمعت عن لغة الجسد، لكنني هنا رأيتُ سلوك الجسد من خلال لغته، لغة أصابع اليد الواحدة، هذه اللغة التي لاتتعدى كونها قُبحًا مطلقًا وسلوكًا شائنًا، واستهانة بكلّ القيم، وتجريدًا للإنسانية من خلال شخص بغيض مريض يمارس كلّ ماتبتغيه سلطة الدكتاتور اللعين.

عندما أكون مقيّدة في غرفة التحقيق، منحنية أو متدلّية. أكون سهلة لرسم لغة الأصابع، يأخذ بتمرير أصابعه الغليظة على

جسدي، وهو يردّد كلمات لم أسمعها من قبل، يقطع كلامه ونفَسَه ويقول:

سأجعلهم يغتصبونك. أغمضُ عينيّ وأحاول الاختباء تحت عباءة أمي، أو بين طيّات ثياب الله الذي أتخيله شيخا أو راهبا، لكنهما يختفيان دون اهتمام، أمي والله معا.

خرجتُ من بيتنا عروسةً صغيرة، زفّوني لبيت الضابط الطيار مُحَمّد، لبيت (ابو مُحَمّد). عند خروجي من دارنا التي كان يسكنها الله قربةً إلى أمي، شعرتُ بأنني سأفارق الله بمجرد فكرة أنني سأعيش في غير بيتنا وبعيدا عن غرفة أمي. تعزّز هذا الشعور وصار يكبر ويستفحل وأنا أعيش أجواء الغش والخيانات والعهر الذي يمارسه زوجي. كبر شعوري بالابتعاد عن الله وأنا أشاهد كلّ ليلة (أبو مُحَمّد) وهو يحتسي العرق حدّ الثمالة، ويبدأ بممارساته العنيفة مع زوجته (أم مُحَمّد) التي تتحوّل إلى عبد ذليل يتلقى الإهانات والضرب والشتائم. أهرب إلى غرفتي في الطابق العلوي، لكنني لا أسلم من صراخه وشتائمه وطلباته التي لاتنتهي.

منذ خروجي من دار أهلي وأنا أعيش كابوس الكُفر والصراخ والخناقات والخيانات والكذب في أجواء هذه العائلة اللعينة. منذ أول لحظة دخلتُ هذا البيت انتابني الإحساس بعدم وجود الرحمة، إحساس تشكّل بمجرد أن التقتْ نظراتي عن قرب بهم (أبو مُحَمّد) و (أم مُحَمّد)، منذ أول لحظة وعيونهم تُجهر بعداء غير مُبرر ولغة مليئة بالحقد

والكراهية، منذ أول لحظة ومُحَمَّد الضابط الطيار يعاملني كجندي مراسل ذليل يخدمه ويقدم له مايشاء دون رفض أو اعتراض.

شعور آخر سيطر عليّ، شعور بعيد عن الأمان في هذا البيت البعيد عن الله. أقول لنفسي دائما وأنا سجينة هذه الجدران:

كيف السبيل للتواصل مع الله في هكذا مكان لايحوي سوى الشياطين؟.

شعور غريب مليء بالقلق والتأهب لكارثة قادمة، شعور يكبر ويتّسع رغم مرور الوقت ومجيء ابنتي التي ملأتْ عليّ الوجود بأحلام مضافة، أحلام بنت صغيرة مثلي لاتعرف في هذه الحياة سوى حضن أمها وحنان عائلتها.. تتفاقم التفاصيل بكلّ جزئياتها للتحوّل لعائق كبير يحول بيني وبين الحياة، بيني وبين الله الذي هو أملي الوحيد بعد أمي. أشعر بوجود البذرة التي تنمو وتمتّد بجذورها الخبيثة تحت سقف هذا المكان الأظلم، بذرة تختبئ في هذا الجو الأخرس، أراها بوضوح وأترقّب ثمرتها التي ستكون موجعة قاسية، والتي ستأخذ بالجميع من هذا البيت إلى مكان أكثر ظلمة وسوادا.

إلى أن حان الوقت وحلّتْ الكارثة وأتمّ مُحَمَّد خياناته بتتويجها بفعلة (الخيانة العظمى) كما أطلق عليها الضابط الكبير الذي كان أكثر شخص يحصل على كلمة سيدي، والذي كان يتلذّذ بقولها وهو ينظر بوجهي وكأنني أنا من فعلها. اقتادونا جميعا للسجون وهرب مُحَمَّد تاركا الجميع تحت سطوة السلطة المجرمة التي لاتعرف سوى القمع والسجن والإعدام. هرب مُحَمَّد بحثا عن آفاق أخرى أكثر حرية وأكثر

مجونًا وأكثر خوضًا بالخيانات والاستهتار واللامسؤولية، فيما بقينا تحت قبضة اللاعدالة في سجون انفرادية كلّ على حدة في مراكز تعذيب العراق العظيم والقيادة المجيدة. لا أعرف بالضبط ما الذي حلّ بهم، ففي لحظة أن أخذوني إلى التوقيف لم أكن على علم بشيء كنت في بيت أهلي، لكنني علمت فيما بعد بأنهم أخذوا (أبو محمّد) وسجنوه، وحقّقوا مع (أم محمّد) وأطلقوا سراحها، وبقي البيت مهجورا خاليا لاتمرّ به حتى الأشباح من جراء المراقبة وعيون المخابرات والاستخبارات ورجال الأمن الأشاوس.

أتذكّر ذلك وأنا في زنزانتي، وألوم نفسي كثيرا لأنني لم أتصرف بشكل صحيح لإنقاذ نفسي وابنتي التي بقيتْ يتيمة في ليلة وضحاها.

لمح لي عدّة مرّات عن فكرة السفر أو الهروب وطلب اللجوء من خلال ضباط المعارضة الذين يتواجدون في الشمال، أتذكّر تماما الآن، عندما قال: إن (وفيق السامرائي) الضابط المعارض يبعث برسائل للضباط الطيارين ويغريهم بالمال والقبول في دول اللجوء. لكنه يردف بسخرية أنه من المستحيل أن يفعل هذا.

كان إحساسي حقيقة ماثلة، و أنه سيفعل شيئا كبيرا يؤدي بي إلى نهاية مأساوية، لكنني لم أكن أتوقّع أن تصل الأمور إلى هذا المستوى من النذالة والخسّة، لم أتصوّر أن رجلا ممكن أن يترك ابنته وزوجته ووالديه في قبضة نظام دموي مجرم لمجرد أنه يبحث عن ملذّاته ومتعته و عهره.

يقول لي الضابط الذي يجيد لغة الأصابع:

لقد تخلّى عنك زوجك، ها، وأهلك أيضا. ويقهقه ضاجّا بصوت البقرة المريضة،، حتى الله سيتركك.

(سحابة عابرة)

مرّ عليّ أكثر من عشرة أيام وأنا سجينة هذه الزنزانة القذرة التي تفوح منها نتانة الأجساد وعفونة القهر. هل كانتْ عشرة أيام حقا؟. تعرّضتُ لأقسى ما يمكن من التعذيب والإهانة وواجهتُ أصعب ما يمكن من اختبار في المقاومة والصمود إزاء أبشع وأقذر وأعنف المخلوقات على وجه الأرض. لم يكن لدي من سلاح سوى الأمل في - أن الله لاينسى -، الأمل الذي يلازمني من خلال ذاكرتي المليئة بأصوات وصور أمّي وحكاياها عن أهمية - أن لايأس من رحمة الله -. لكنني لم أشعر بوجود الله معي أبدا وخاصة في الأوقات العصيبة جدا، فحين يهمّون بتعذيبي وإيذائي وأستعين به، لاأراه ولا أحسّه، كأنه سحابة عابرة تتبرأ منّي وتهرب. أذكره بكلّ ما أحفظ له من أسماء، لكنه يتوارى، أو أتخيّله واحدا منهم، نعم لأنه هو من يمنح القوّة ليستخدمها الناس لأغراضهم، لكنني أتراجع وأركع له حين أشعر بانه هو من يمنحني الصبر والمقاومة و (لكلّ حرج فرج) حين ترنّ بداخلي كلمات أمي المهدّئة.

كانتْ مخيلتي الضاجّة بالذكريات والأماني والتفسيرات والمشاهدات والترقبات والخيبة، هي السلاح الأكثر فاعلية في جعلي أستيقظ نفسي من الموت بين يوم وآخر أو بين لحظة وأخرى. أتذكّر

الأشياء بوضوح وألوم نفسي على كلّ ما حصل، وألوم أهلي أيضا على فعلتهم وهم يسلّمونني بيد هذه العائلة التي لارحمة لها ولا ناموس.

هربتُ عدّة مرّات من بيت (أبو مُحَّد) بعد أن أتعرّض للضرب والإهانة، وكانتْ الحلول سهلة، حيث يأتي زوجي مبتسما بوجه الجميع، فيبدو الأمر سهلا وعليّ أن أعود لبيت مُحَّد لـ (بيتي) هذا مايطلق عليه عائلتي، فينتهي الأمر على أنه زعل بسيط ولابد من العودة لممارسة نفس الحياة ونفس المهانة والاضطهاد من قبل والديه اللذين أتخيلهما عبارة عن أشباح شريرة لاتعرف الرأفة أو الإنسانية.

عندما كنتُ في المرحلة المتوسطة، بدأتْ العيون تترقبني حيث أصبحتُ طويلة ورشيقة وشعري الأشقر المسدول على أكتافي يتماوج مع مشيتي الخجولة، صرتُ أسمع همسا ومداعبات تحرجني، وكان أولاد منطقتنا ينظرون إليّ بعيون غريبة مليئة بالإعجاب والتهوّر، كان هذا يجعلني أشعر بالغرور والفخر، وعند عودتي للبيت أظلّ أراقب نفسي بالمرآة وأنا أستذكر كلماتهم الغريبة التي تبعث بي شعورا غريبا يُغضبني حينا ويسعدني حينا آخر.

منذ السنة الأولى في الكليّة وهي بداية اختلاطي بالناس بشكل مباشر واحتكاكي الحذِر مع الرجال، بدأتْ تتناوب عروض العلاقات والزواج والخطوبات التي جعلتْ بعضهم يفاتحني بشكل مباشر ويطلب منّي الإذن في الذهاب إلى أهلي ويجعل الأمر رسميا، لكنني كنت أرفض وأبتعد، وفي حقيقة الأمر، كان يتلبسني الخوف من تكوين علاقة مع أي شاب أو حتى الحديث معه.

خطبني فجأة (باسم).. الضابط الذي كان يراقبني في الذهاب والإياب، أحد أبناء المنطقة، خطبني دون يسألني أو يلمّح بذلك. ودون سابق إنذار، حلّ أهلهُ علينا وطلبوني للزواج، وافق أبي، وفرحتْ أمي وتهللتْ أسارير العائلة جميعا، كيف لا، وهم يطمئنون على مستقبل ابنتهم مع ضابط شاب له مستقبل كبير وحتما سيسعد ابنتهم ويخلّصهم من مسؤولية الاهتمام بها وحمايتها ومراقبتها.

كان شابا طائشا، يرتدي بدلته العسكرية ويسير متبخترا مثله مثل ضباط تلك المرحلة العسكرية التي بناها صدام حسين ليرعب الشعب ويسيطر على الناس. لم أستطع الرفض وليس لديّ الرغبة القاطعة بالموافقة لكنني حينها كنتُ قد كرهت الدراسة وقرف التلصص من قبل الجميع وقررتُ أن أبدأ مشوارا آخر وأغيّر حياتي، هو في الحقيقة هروب من الجو المشحون بالتجسس والحذر والوشايات والفخاخ التي ينصبها الجميع للجميع، وأيضا محاولة لتجريب قصص أسمعها من الآخرين حول الزواج والاستقرار ومدى الاستمتاع بهكذا أجواء التي هي الزواج.

تبادلنا الزيارات العائلية وكان (باسم) يحاول الانفراد بي لكنه لم يفلح، لأن أهلي يحيطونني ولايسمحون لي بالانفراد معه. ومع الأيام صرنا نتكلم بالتلفون ويمنحنا الأهل فرصة اللقاء قريبا من عيونهم ومع تكرار اللقاءات والأحاديث اكتشفتُ أن خطيبي ولد صغير لايستطيع فعل أي شيء دون العودة إلى أمه، ولايمكنه اتخاذ قرار مهما كان دون موافقة أهله بمن فيهم الأم.

ترددتُ كثيرا لكي أعلن لأهلي بأنني لا أريده، وأنني أفضل أن أموت على أن أرتبط به، كان الخبر كالصاعقة على أفراد العائلة، لكنني صمدتُ بوجه الجميع، ولأول مرّة أشعر بأنني أستطيع أن أقول كلمتي وأدافع عن نفسي.

لم يكن الأمر سهلا. لم يستسلم الضابط الطائش، بل أخذ يهدّد ويتوعّد مما جعل أهلي يحرصون على متابعة الموضوع بأهمية وتشديد، حيث ضاقتْ مساحة حرية الحركة بالنسبة لي، وصار لزاما عليّ أن أكون محكومة بمساحة محدّدة في حركتي التي هي أصلا ضيّقة لاتتعدى البيت والمدرسة.

(تأويل)

أعتبرُ التأويل نجاة من التفسيرات المباشرة الصادمة، وأثقُ بأن التأويل هو أفضل السبل التي أوجدها الإنسان ليدافع بها عن نفسه إزاء المصائب التي تمتلئ بها الحياة، لذا ألجأُ لتفكيك صور الجنرال أحيانا. صورته على الجدار، أقتبس منها رسم النسر في مقدمة القُبّعة، وأتخيّل النسر طائرا حرّا في سماء صافية، تمرُّ من تحت جناحيه صور الحقول والجداول والأطفال في قرى تنام على ضفاف الأنهر المستسلمة لهدوء الطبيعة الجميلة. أو أجعل من نصف ربع الابتسامة التي يجامل بها المصوّر علامة لمحبّة غير معلنة لكنها واضحة في صورته التي يسبقها تصوّري عنه. وأحيانا أتخيّله واحدا من أفراد عائلتي في حالة الغضب أو المرح أو أي موقف آخر لكي أضع المسافة الافتراضيةبيني وبين الواقعة الآنيّة المشحونة عادةً بالخشونة والرعب والعذاب لأصنع شيئا من المعادل لكي أتوازن بشكل نسبي على الأقل في غمار هذا الالتباس.

التأويل ضرورة تحافظ بها على أسنانكَ من قوّة شدّ فكّيكَ بفعل الغضب والحقد والألم، فبدل من أن تفقد أسنانكَ بتأثير حماقات الآخرين، حاولْ أن تغيّر صورة الجلاد، انظر إليه على أنه ضحيّة مسكينة، غيّرْها وخذْ من يده السوط وحوّلْه إلى غصن، لوّح به لذكرى معيّنة تنطوي على مضاد للألم. ليكن هذا الجلّاد شريكا ببعض

مايتسببه الضرب، هو يتعب أيضا ويتألّم ويتخيّل مثلك، استثمرْ هذا واجعلْه أرجوحة بينكما تذهبان وتعودان معا، إنه شيء من محاولة في جعل الموضوع مفهوما بطريقة تكثيف النسبة وتوزيعها بنفس الوقت، وهي محاولة لاستثمار ما تمليه بقايا العقل في أن تكون أنت جزءا من فعل وممارسة وأداء أعضاء الجلاد التي أجهدها كلّ هذا التداخل بينكما.

تعودتُ فعل التأويل حتى في عناوين الصحف المحليّة التي كانتْ تحاول تخفيف وطأة كارثة الحرب على الناس، كنتُ أقرؤها بعين ثالثة وأتفاعل مع كتّاب تلك المرحلة بإضافة تأويلاتي الخاصة التي تجعلني أكذب على نفسي لأتقبّل ما يدور من حولي من أحداث ربما تؤدي لأعراض لا يمكن تلافيها في جسدي.

بدأتْ حياتي الزوجية بصدمة لم تمنحني فرصة للتأويل. محمّد الضابط الطيّار، خطيبي الذي لم أسمح له أن يلمسني طيلة فترة الخطوبة، هو زوجي الآن، مازلت لا أعرفه، بليلة الدخلة صار الموقف جادّا. تجربة الاقتراب من رجل بشكل حقيقي مرعبة بالنسبة لبنت مثلي ليس لديها فكرة عما سيحدث..!

في ظلام الغرفة، تحوّل خطيبي، زوجي، تحوّل إلى مجموعة أسباب تؤدّي للكابوس ذاته، كابوس طالما راودني في طفولتي وكبر معي، كابوس ثقيل يجعلني أشعر برغبة عارمة للفناء أو الهروب لمكان غير الذي أنا فيه.

مضى على وجودنا في الغرفة أكثر من أسبوعين، ونحن نتشارك شهر الكابوس أو كابوس العسل. ضاقتْ به السبل للحصول على مرتبة الرجولة معي، وضاقتْ بي اللحظات وأنا أعيش ألماً لا تجربة لي به.

كان زوجي مؤوِّلًا من الدرجة الأولى، حيث صار يهرب من مواجهتي وجها لوجه، يأتيني من الخلف، وعندما يسمعني أصرخ من الألم، ترتفع رايات النصر بداخله ويظن أنه استوفى شيئا من حضور رجولته في تلك الحظة التي قلبَها ووضع وجهها خلف جدار سميك يفصل بيننا. مضتْ على هذه الحالة أسابيع وشهور، ولم تخلص إلا بفضيحة تداولتها الأمهات والعمات والخالات والأخوات. كنتُ حينها قد خزنتُ من الألم والعذاب ما لايطاق، قمتُ بإبلاغ أمي عن حقيقة مايجري مع زوجي الضابط الطيار الذي أضاع رجولته وصار يبحثُ عنها في عذابي وألمي.

هنا في نزنزانتي هذه، أبحثُ عن مسببات تأويلية مماثلة. حارس متجهّم يسحبني لغرفة التحقيق، أشعر بقوّة يده وهو يقبض عليّ، يهزّني بعنف، أحاول جاهدة أن أجد شيئا أبرّر به فعلته معي. يشبه أخي الكبير عندما كان يمزح معي بيديه القويتين. وذلك الضابط الأشيب الذي يشير لهم بتعليقي بين حين وآخر، له شبه بوالدي عندما يستدير جانبيا، والدي كان مسالما جدا، وهذا الضابط الوحش له مبررات جعلته شريرا لدرجة الحماقة، لكنه يشبه والدي جانبيا، ألايشفع ذلك له بشيء؟.

رأيتُ عشّا لطائر بلون رصاصي، رأيته من خلال فتحة نافذة غرفة التحقيق، صفّق بجناحيه وتوارى، هذا الطائر المجنون ماالذي أتى به إلى هنا؟ كأنه يتلصّص على مايجري في هذا المكان الخارج عن قوانين الله..!

رأيتُ ذبابا كثيرا يتحلّق على بُقع الدم وقذارات المخلفات في ممرّات البناية المظلمة، هذا الذباب الذي يتناسل ويصدر أصواتا احتفالية بالحياة المثمرة بالنسبة له، رأيتُ صراصر مُبتهجة وبعوضا ناضجا، وديدانا تتضاحك برغبة كبيرة للحياة، رأيتُ حُرّاسا كثيرين يتشابهون كثيرا، رأيتُ مخلوقات كثيرة هُنا، كيف حدث كلّ هذا يالله؟

كيف لكلّ هذه المخلوقات المتناقضة أن تجتمع في مكان واحد وكأنها عائلة تمارس الصلاة لربّ واحد؟

كان الدين أجمل الأشياء التي تجعلني أشعر بالأمان والسكينة، وكنتُ أظنّه سفينة النجاة الأولى والحارس الأول الذي سيعود بي إلى شطّ النجاة مهما كانتْ الأمور، وكان الله والأنبياء والقرآن يجتمعون بصوت أمي وهي تهمس مبسملةً أو تشهق بعبرة عميقة وهي تردد أدعية مكتوبة بسجع عظيم كأنه موسيقا إلهية تخرج من شقوق تاريخ يعجّ بالجمال والألم والمحبّة. الدين السمح العظيم الذي لاأعرف عنه سوى الألفة والعفّة والسموّ والأخلاق الحميدة، كيف لهم أن يؤّولوه لدرجة أن الله يتحوّل إلى عامل مساعد بيد الجلاد؟، أو منشّط جنسي يستنجد به الحرّاس وهم يتناوبون على اغتصاب الفتيات في غرف

التحقيق؟ كيف سيكون شكل الله وأنا أراهم يرددون (يالله) أثناء ضربي وإهانتي والاعتداء عليّ؟

يقول لهم الـ (سيدي) الأكبر بينهم:

يالله لنبدأ.

أبتسم بداخلي رغم الرعب الذي أعيشه حينها، وأنا أسحب كلمة الله من جملته الأخيرة، أرسم حروفها على قلبي المضطرب وأمسحها بدموعي، وأغسلها بكلمات التقديس، وأشفق على الله حينها، أنه فقد قدرته على حماية نفسه.

(شكوك)

لم أستطع البوح بشيء. كان الضابط المحقّق يحدّق بوجهي وكأنه يعرف أني أخفي عنه واقعة ما. قلتُ لنفسي منذ البدء، الصمود، لأنني لو بحت بشيء بسيط أو معلومة عابرة تُثبت علمي بهروب مُحَّد قبل أن يفعلها، لكانتْ التهمة ثابتة عليّ ولذهبت لعقوبة لارجعة منها. الضابط يشخّص جريمتي وهو ينظر بعينيّ، وأنا أراوغ بإغماضة، أو التفاتة غير مُبرّرة. تَظهرُ شكوكهُ على شكل تعابير في وجهه ونظراته، يحوّلها إلى أسئلة مباشرة:

كيف يهرب زوجك دون أن يبلغك بشيء؟

تريدينني أن أصدّقك؟

وقبل أن يبدأ الغضب والصراخ والضرب،

قوليها بهدوء وسأرحمك!

يشكُّ بأقوالي، وأشكُّ بنواياه، بمعنى إذا قلتُ له إن (مُحَّد) قال لي مرّة إنه سمع أن بعض ضباط المعارضة الذين يسكنون كردستان، يدعون الطيارين العراقيين للهروب والاستقرار في أرض كردستان، ومن ثم الحصول على اللجوء في الدول الغربية. قالها مُحَّد وهو يضحك، قالها وهو ينظر إلى جهة أخرى لم يدعني أنظر بعينيه حينها لأعرف قصده من تلك الحكاية. لكنه أردف، أنه ضرب من الجنون أن يفعل المرء

هكذا مغامرة. وسكتَ وغيّر الموضوع لكي لايفضح نفسه أكثر. هذه الواقعة الوحيدة التي يمكنني قولها، لكن الذي يعيقني هو علمي المسبق بأنها تعني إثبات التهمة على نفسي بشكل مباشر، كوني لم أبلغ السلطات عليه في حينها.

كنتُ أشكّ بـ مُحَمّد منذ أول لقاء بيننا حيث أيام الخطوبة، هو لايملك وجها بريئا، ودائما يخفي في عينيه كذبة أو مؤامرة أو خدعة. يتّضح ذلك بنظراته وهو يتحدّث أو في قسماته وهو يحرّك يديه موهما الآخر بالنظر في الاتجاهات، هروبا من مواجهة العينين.

هي في الحقيقة لم تكن شكوكا حتى في بداياتها، فأنا كنت أرى وأسمع من الجيران عن طيش مُحَمّد وأصدقائه، وكيف أنهم لاشغلة لهم غير التسابق على مصاحبة الفتيات والجري وراء العلاقات العابرة والمتعة الرخيصة.

وتأكّد شكّي حين عشت معهم في بيتهم حيث يعيش معنا والداه، والداه اللذان يعرفان خيانته لي ويشجعانه على الاستمرار والتمادي بها. وأمه التي لا أعرف سرّ كراهيتها لي! ولا أعرف كيف أكسب رضاها مهما قدّمتُ وفعلتُ.

أم مُحَمّد التي يفترض أنها بمقام أمي، هذه المرأة التي لاتعرف الرحمة وليس لها في الحياة سوى افتعال المشاكل من خلال الأكاذيب والنفاق وعدم الاحترام.

عندما يرنّ جرس الهاتف في البيت، تركض أم مُحَمّد وهي تهمس بكلام لا أستطيع سماعه، وتأخذ بالهاتف إلى ابنها، ويبدأ مُحَمّد بالكلام

الناعم الذي لا أستطيع سماعه، حيث يبتعد إلى أبعد زاوية وهو يهمس بصوت خفيض. حينها تجلس العجوز تنظرني بطرف عين ونصف ابتسامة وكأنها تقول: هو يخونك ياغبية.

تكرّر هذا كثيرا، فذهبتُ مرّة لأرفع سماعة الهاتف من غرفتي في الطابق العلوي، لأسمع صوت بنت على الجانب الآخر وهي تتغنّج، ومُحَمَّد يبادلها الكلام والغزل، حينها صرختُ بهم جميعا وصار صوتي يهزّ البيت، صرتُ أشتمهم جميعا وأقول لهم إنكم عائلة ساقطة ولا رحمة في قلوبكم، صرتُ أصرخ وأهذي وأشتم الجميع دون توقف. هرب مُحَمَّد خارج البيت بعد أن حاول فتح الباب عليّ ليضربني، لكنه غادر متوعدا أنه سينال منّي عندما يعود.

مرّ الوقت، وسمعتُ صوت الوالد يتعالى بعد أن همستْ له الأم بكلام ما. سمعتُ وقع أقدام غاضبة وصراخ (أبو مُحَمَّد) وهو يصعد إلى غرفتي، وهو يردّد أنواع الشتائم الفاحشة والكلام البذيء بحقّي وحق أهلي، صار يضرب الباب بيديه وأقدامه، زادني ذلك إصرارا على مواجهته، خرجتُ وأنا أصرخ بوجهه أن يفهم مايجري في هذا البيت، لكنه لم يمهلني فرصة للقول، فشدّني من شعري وصار يطوّح بي في الزوايا، ليرتطم جسدي في الجدران وقطع الأثاث، لم أستطع مقاومته أو حتى السيطرة على جسدي الذي انكشف أمامه حيث تمزّقت ملابسي، لكنه استمرّ بضربي وتعنيفي وكأنه عاد ليمارس عمله الأول في السجون حيث كان يعمل في سلك الشرطة، تمالكتُ نفسي

واندفعت خارجا، ركضتُ في الشارع بملابس ممزّقة، وصلتُ بيتنا وأنا في حالة لم يستطع أحد من أهلي تصديقها.

كانتْ هذه آخر لحظة لي مع تلك العائلة، عائلة زوجي الخائن الضابط الطيار.

عند مغادرتي البيت سمعته يصرخ خلفي، كنت أعرف أنك غير مؤدبة، كنت أشكّ بك منذ البداية، لكن الأمر اتّضح الآن، لاتفكري أبدا بالعودة ولن أسمح لكِ برؤية ابنتك أبدا.

في بيت أهلي، اجتمع من حولي أفراد العائلة وهم يتناوبون عليّ بالكلام، بين المواساة والتهدئة والتصبير وبين رفع المعنويات للتحمّل والرضوخ لما يطلبه الزوج ووالداه الكبيران في السن وما يجب أن تكون عليه الزوجة من صبر وطاعة لزوجها وأهله ... شعرتُ حينها بأني وحيدة في هذا العالم، وحتى أمي التي هي ملاذي الوحيد، بدتْ وكأنها تود عودتي لبيت زوجي رغم كلّ الذي قلته من قصص لما جرى لي معهم. لم يمرّ على هذا الحدث سوى أسبوعين أو أكثر، بعدها جاء مُحَمّد إلى بيت أهلي طالبا عودتي، لم أقبل وصرختُ بوجهه وطلبت منه تركي إلى الأبد، حينها همس لي أنه سيفعل شيئا يجعلني أندم كثيرا. لم أهتم لما قال، فأنا في بيت أهلي وابنتي معي، ليقتل نفسه!

لكنه لم يقتل أحدا غيري. لم تأخذني شكوكي إلى أنه سيقوم بهكذا فعل حقير ولعين، تركنا جميعا في دوّامة الخوف تحت مقصلة النظام المجرم، نحن جميعا، أنا وابنتي وعائلته وعائلتي وكلّ من يحيطنا من

أقارب وأصدقاء وجيران، نعم فهو نظام لايعرف سوى الشكّ، الشكّ مهما كان صغيرا سيقود للمقصلة.

(تمزيق دُمية لميس)

أمرٌ قديم، يبدو وكأنه نكتة سخيفة بقيتْ في ذاكرة العائلة. لا أتذكّر بالضبط مَن كان ذلك الصبي ولا أتذكّر كم كان عمري، ربما ثلاث أو أربع سنوات، كنتُ أرافق دميتي على الدوام وأحملها معي أينما ذهبتُ، كانتْ هذه الدمية أختي وصديقتي وعزيزة قلبي، أحاورها كثيرا، فتصغي لي بشكل جميل يجعلني أحبّها أكثر وأراها أقرب شيء لي بعد أمي... زارنا ذلك الصبي ذات يوم مع أهله، كان يكبرني بسنتين أو أكثر، كانتْ عائلته من الأقارب الذين يتزاورون مع أهلي باستمرار، وكان هذا الولد ضخما، عنيفا، لايردعه صوت الكبار ولا يخاف من تهديد الوالدين. دخل عليّ في غرفتي وصار يمزح معي بطريقة قاسية، صرختُ به أن يخرج من غرفتي، لكنه ازداد عنفا و تهوّرا، فسحب دميتي ومزّقها ورماها وهو يضحك ويهرول في الغرفة كالمجنون، تعالى صراخي، فحضرتْ أمي راكضة إلى غرفتي لتنقذني من هول الموقف لكنها لم تستطع إنقاذ دميتي التي صارتْ قطعا في أرجاء الغرفة.

ربما، لم يحدث هذا..! أقول لنفسي، أو لعلّه مجرد كابوس صغير يبدأ رحلتي مع الكوابيس الكبيرة التي ستتوالى عليّ فيما بعد. الكوابيس التي لايمكن أن يتخيلها إنسان مثلك أيها القارئ المسترخي الآن وأنتَ تطالع هذه الحروف المكتوبة بلحظة مشوّشة مليئة بالعتمة

جراء محاولتي في تجميع مايمكن تجميعه من أحداث مرّتْ عليّ خلال فترة توقيفي أكثر من أربعة أسابيع في سجون نظام صدام حسين.

ربما تبدو (أربعة أسابيع) فترة قليلة بالنسبة للبعض، هنا أقول لاتقارنوني بـ (مانديلا) مثلا، أولا، لأنني طفلة صغيرة لاتجربة لي بشيء آنذاك، وثانيا، كنتُ محبوسة في سجون العراق و في زمن صدام قائد الأمة العربية، وهنا يكمن الفرق الكبير.

في ليلة مظلمة جدّا، وفي وقت يفترض أنه صلاة الفجر، وأنا في زنزانتي، راودني ذلك الكابوس، وظهر الولد الضخم العنيف وهو يدور سريعا حولي، صرختُ كثيرا، لكن أمي لاتسمع..! انبثق شبحان ملثّمان يتحاوران بلغة لا أفهمها، صارا يتشمّمان جسدي ككلبين، يتحسسانني بأنفيهما وشفاههما الخشنة جراء وجود الشوارب الخشنة المندلقة من فتحتي الأقنعة واللثام:

- هنا، هنا، لنفعلها هنا.
- لا، لنأخذها إلى الغرفة.
- لمَ، لا؟.. هنا أيها الغبي..!
- لا في الغرفة أفضل.
- طيب، إي، إي، السرير.
- يالله، بسرعة.

سحبني أحدهما بقوّة، ورفعني الآخر عن الأرض، وبلحظة وجدتُ نفسي مقيّدة على السرير أواجه رأسيهما الملثمين وجسديهما العاريين، لم أصدّق بادئ الأمر بما يجري، وقلتُ:(هي لحظات وتأتي

أمي لتوقظني من هذا الكابوس، أو تطرد الولد الضخم وأخلص)، لكن الأمور لم تسر هكذا. لقد استعان أحدهما بالله وهو يقول: (يالله سأبدأ أنا وأنتَ من بعدي). وافقه الثاني وانتحى جانبا يتفرّج على صاحبه الذي مزّق ملابسي وجسدي ودميتي وأحلامي وعائلتي و روحي، لقد مزّق كلّ مايمكن أن يجعلني أثق بالحياة والوطن والناس والكون و بالله الذي أعانهم عليّ. صار هذا الشبح السفّاح مثالا حقيقيا يتجسّد به كلّ ظلم وقهر ووحشية الحياة في زمن ضدام وقيادته الفاشيّة، وصرتُ أرى في هذه اللحظة أشياء تجاوزتْ حدود فهمي للكوابيس وحدود شعوري بألم الجسد والروح والندم على الوجود في هذا الكون.

اغتصباني بطريقة أسوأ بكثير من الإعدام بطريقة قطع الرؤوس أو إطلاق الرصاص في فتحة الفم، تناوبا عليّ باقبح مايمكن ان يفعله أسوأ كائن على هذه الأرض، ومارسا طقوسا لم تكن في حسبان الطبيعة ولا في تصوّر الرب الذي خلقنا جميعا والذي ينظر إليّ دون أن يحرّك ساكنا. لم أعد قادرة على الصراخ، أو ربما أنني وصلتُ مرحلة اليأس من صراخي الذي هو توسّل لهم واسترحام وابتهال لله وتشبث عشوائي بأدعية تناثرتْ على بعضها وضاع معها صوت أمي التي لم تعد تراني أو تسمعني. لم يكن كابوسا عابرا، ولم أكن أنا، ولا أعرف مَن هما!

طبيعة أخرى تتلبّسني، صرتُ مثل ذئبة جريحة مُكسّرة الأطراف تنهش بها كلاب وحشيّة قادمة من جحيم مُظلم، وصار الذين من

حولي أكثر من اثنين، تناسلوا وتكاثروا بالانشطار، تحولوا إلى الآف من الأشباح التي تملأ الشوارع وتدور حول بنايات الحزب ومؤسسات الدولة العراقية العظيمة وهم يغتصبون المارّة والناس المختبئين في بيوتهم المسوّرة بالمخبرين والعساكر، الدولة التي غلّفها الظلم والتعسف والقهر، وازدادتْ زهوا بانتصاراتها على الضعفاء والمساكين والعاجزين والعُزّل والأبرياء والرابضين تحت وطأة الاستسلام لأمر الله.

لم أستطع البوح لأحد بما حدث، لكنني تجرأتُ ودلقتها بوجه الضابط الكبير، الشخص الذي ينال أكثر من غيره كلمة (سيدي)، قلتها له وبي غصّة ومرارة وعَبرة بكاء لايسعها إنسان:

سيدي إنهم يغتصبونني، رجالك سيدي يعتدون عليّ في الليل، هل يرضيك هكذا فعل سيدي؟

انتفض السيد مذعورا، وصار يحدّق بي بغضب:

ماذا؟

قلتُ: إنهم يعتدون على شرفي سيدي، أليس لديك زوجة أو ابنة أو أخت؟

حينها لم أعد أذكر شيئا، بعد أن رأيت وجهه وقد ارتعش واحمرّ، وارتفعتْ يده العملاقة قادمة على وجهي المغطّى بالدموع وهو يصرخ:

عاهرة، عاهرة، عاهرة.

صارتْ الكوابيس تتكرّر، والملثّمان يتحاوران فيما بينهما بأمور كثيرة تخصّ حياتهما وشؤونهما الأسريّة. والعجيب في هذا أنهما يحاولان

إقناع نفسيهما بأن ما يقومان به هو جزء من المهمّة الموكلة إليهما في الواجب. أستمع إليهما وأنا شبه غائبة عن وعيي، يتكاثرون أمامي، تذوب أصواتهم ونبراتهم مع مخيلتي وهم ينطقون كلمات سبق وأن سمعتها، يقولان:

(ابنتي، أمي، زوجتي، المدرسة، الله، المسجد، جدتي، السيد، الرئيس، القوادون، السجناء، أولاد الكلب، المسدسات، سننيك أخواتهم، سيدي، الله كريم،والنبي، صلوات الله وسلامه،الحمدلله، إن شاء الله) كلمات كثيرة تتشكّل منها جُمل تؤدي لأغراض الحكي أثناء ممارسة الواجب،ويقهقهون في لحظة استراحة يأخذونها مع سجائر كثيفة الدخان تتحوّل إلى غيوم داكنة تسيطر على سماء الحياة في العراق العظيم.

يلهثان فوق جثتي العارية، بينما روحي تحلّق بعيدا باحثةً عن فتقٍ في سقف الغرفة، تبحثُ عن بقيّة أثرٍ لوجود الرب في هذا الكون. يتدافعان بأجسادهما الثقيلة، يحرّكان أطرافي الميّتة وكأنهما ربّان يحاولان بعث الحياة بهيكلي البارد حدّ الموت. لاقدرة لي على الصوت أو الحركة، أنا فقط أهذي بداخلي وأشتمُ الجميع بما فيهم الله.

(أقنعة شفّافة)

مِن أمام باب زنزانتي يمرّرون رجالا بلحىً كثيفة ووجوه مُقنّعة بالدم المتخثّر والتورمات والكدمات الداكنة. يقولون لي بصوت يشبه صوت مذيع نشرة الأخبار:

هذا هو مُحَمّد، هذا هو زوجك، هل عرفتيه الآن؟

ألا تصدقين أننا أمسكنا به، نعم لقد اعترف عليكِ، وقال لنا كلّ تفاصيل مؤامرتكما ومحاولتكما في اللقاء خارج العراق..!

ماعاد لكِ من عذر، لقد اعترف زوجكِ، وما عليكِ إلا أن تقولي الحقيقة.

أقول لهم بحرقة:

لقد أمسكتموه، اتركوني إذن، هو الخائن، هو المجرم، افعلوا به مايستحق، ماذنبي، لاأعرف شيئا.

وأنا أعلم تماما أن الأشخاص المقنّعين لايوجد بينهم مُحَمّد، وأنهم جميعا سجناء مساكين يموتون جميعا من جراء التعذيب الوحشي والإجرام اللاأخلاقي الذي يُمارس ضدهم.

وددتُ لو أني أبصق بوجه الكبير بينهم، وأقول له بصوت يسمعه الجميع:

ستسقط هذه الأقنعة الواهية المفضوحة، سيسقط قناع قائدكم أولا، ثم تتوالى عليكم جميعا وتنالون ماتستحقّون من عُري وفضيحة ورجم بالأحذية.. لديّ الكثير من الحكي والشتائم والسباب والتشهير، لكنني لاأقوى على فعل شيء منها ولا حيلة لي سوى أن أقولها لنفسي وهي محاولات العزاء الوحيدة التي أستبدلها عندما أتعب من ترديد الآيات والأدعية والبسملة والاستغفار.

طيلة فترة وجودي في السجن، تنقّلتُ بين أكثر من مكان، يأخذونني معصوبة العينين ويسيرون بي كما تُقاد بهيمة عمياء. يضعون على رأسي كيسا أسود بمثابة قناع، هو في الحقيقة لايخفيني ولايمنعهم من رؤيتي، ولا يمنعني من رؤيتهم، إنه مجرّد قناع شفّاف رغم سمكه وسواده، وهو قناع يعرفونه جيدا ويعرفون زيفه وحقيقته الواهية التي ستنكشف لتظهر مؤخراتهم جميعا بمافيهم القيادة العظيمة التي خدعتنا بأوهام وبطولات على مدى أكثر من أربعة عقود من الزمن، تساقطتْ الأقنعة والتماثيل، وانمزجتْ دموع الفرح بدموع الشعور بالعار، عار الخديعة التي وقعنا بها وانخدعنا بحكاياها الخرافية التي كانتْ تُمثّل لنا القائد والرفاق ومدى قوّتهم وصلابتهم وقدراتهم السوبرمانية.. هاهي الأقنعة تسقط ليتعرى الجميع، الرفاق الذين تحولوا إلى جرذان هاربة في الجحور، والتقاة الذين تحولوا الى قطّاع طرق وعصابات سلب ونهب وقتل، والشرفاء الذين باعوا أنفسهم وشرفهم إزاء الحصول على أقنعة يخفون بها العار الذي غطاهم تماما، الناس عموما انكشفتْ عورتهم وبان معدنهم وصاروا يتقاتلون بعد أن سلختهم الأحداث وظهرتْ

ملامحهم الحقيقية في الساحات والشوارع والأسواق والبنايات والمقابر والمساجد وصالات الإعدامات والقتل الجماعي.. هكذا سقط كلّ شيء عند سقوط الأقنعة، وظهرتْ حقيقة البطل القومي حين تشظّى تمثاله العملاق وسحلته الجماهير الغاضبة التي فقدتْ صوابها وضاعتْ عليها الجهات.

تُعتبر مرحلة مابعد ٢٠٠٣ أخطر مرحلة مرّ بها العراق في تأريخه عبر الزمن، وأعتبرُها أغرب وأعجب مرحلة في حياتي، فما التبس من أحداث فيها كان أبعد مما تصوّر الجميع وأكثر بُعدا مما تتحمّله المخيلة. كانتْ الأقنعة قبل تلك المرحلة تساعد الجميع في المسير، وكانتْ تبدو في مشهدها العام وكأنها تسير بخطوط منتظمة، رغم كلّ الفوضى والخراب المخفي. بعدها، قد اتّضح أن الأقنعة التي يرتديها الجميع كانتْ توحّد الصفوف لطريق مجهول، بدا معلوما بسقوط تلك الأقنعة، والتبس المشهد بعد أن صار كلّ فرد يدافع بشراسة ذئب وحشي عن نفسه وبيته.

في آخر يومين لي في المعتقل، صار الشبحان يزورانني دون قناع ودون لثام، يتناوبان على قتلي بشراسة النمور الهائجة ويخوران كثورين مذبوحين فوق جسدي المتهالك، أشتمهم بصوت مكتوم وأراهما يشبهان مُحَمَّد الخائن، يشبهانه تماما، فأشتمه بكلّ ما أملك من مفردات السباب.

(جثّة تبكي)

كم بعيد هذا المكان عن العالم، وكم عميق سرّه..!

يتسلّلون إليه من أبواب ومداخل لا يمكن رؤيتها، وهم كثيرون، يشبهون ممالك النمل، يتهامسون فيما بينهم، فلا تكاد تسمعهم، وإذا سمعتهم فلاتستطيع حلّ ألغاز مايقولون. بشر، عجنتْهم الحياة في مساحة لايمكن تفسيرها أو الوقوف على مادتها، حرّاس وضباط، تابعون ومقاتلون وقاتلون، يصطحبون الأسلحة في كلّ الأوقات وينظرون للآخرين بعيون مُفترسة، قُساة، غليظون لارحمة في قلوبهم ولاشفقة، حين تراهم وتقترب منهم، تشعر بأنهم عبارة عن حيوانات متوحّشة بشعة، فمن المستحيل لشخص يمارس كلّ هذا الإجرام ببشاعته ودمويته ويكون لديه بيت وزوجة وأطفال وأصدقاء وحياة كما نعرفها. كم ثقيل هذا الوجود، هنا في هذا المكان البعيد عن الحياة.

قذفتني الأقدار بينهم، ووجدتُ نفسي راضخةً لإرادة كونيّة تتحكم بنا جميعا، كُلّنا ضحايا هذه الإرادة التي وزّعتْ علينا الأدوار وجعلتنا نتمنّى لو لم نكن على ما نحن عليه. أشعر بألم الجميع، صرخات السجناء وشهقات موتهم، أتخيّل عوائلهم وذويهم وآلام فراقهم وخوفهم وقلقهم. كأني أرى بوضوح ما يرسله الجسد من شعور قاتل لدى جميع

من حولي جراء مانصنعه لبعضنا من تهلكة وأفعال لعينة. ذات ليلة داهمني الموت، شعرتُ بالبرد يتسلّق أطرافي، ربما شعرتُ بسعادة حينها، سأبتعد عن هذا المكان، سأكون سعيدة حتى لو كانتْ مقبرة. الحزن الوحيد عندي والذي ينبض بداخلي كرمحٍ، هو فراق ابنتي وانشغالي الدائم بذكرها..... دخل عليّ أحدهم صارخا:

يالله قومي، يالله بسرعة.

لم أستطع الإجابة، لقد تسربتْ البرودة اللذيذة إلى جسدي، وشعرتُ بأنني ذاهبة إلى نهاية استرخاء عظيمة السعادة. ظلّ يردد ماقاله، لكنني أوغل بالابتعاد وأضعُ خطوات روحي على طريق الارتقاء عن تلك البقعة الغبيّة وأبعثُ بأنفاسي لاتساعات تتوزّع بآفاق أوسع من الأحلام وأصفى من السماء التي أراها في مخيلتي من قبل.

لحظات قليلة وصار دمي يبرد وقلبي يتباطأ وأنفاسي تتشبّث ببقايا الهواء في هذا الكون. لكنهم تجمهروا من حولي وصارتْ كلمة سيدي تتطاير في مساحة زنزانتي. أسمعهم بشكل جيد، وأشعر بأيديهم تمرّ على جثتي، لكنني لا أستجيب ولا أردّ، لكوني في لحظة متعة هائلة، لحظة محاولة الروح في أن تنقذ نفسها وتترك عفونة الجسد ونتانة الأمكنة التي سوّرناها بالكراهية والظلام والقُبح.

صرتُ أشعر برشقات ماء بارد، كأنني أمزح مع ابنتي في حديقة الدار أيام الصيف البغدادي. مع ازدياد رشقات الماء عاد لي بعض الوعي، فرأيت ابنتي وحضنتها واندلقتْ دموعي الغزيرة وصار دمي

يتحرّك، كأنني عُدتُ لنفس المكان وتراجع الله عن إنقاذي من هذه الكوابيس، ليصرخ كبيرهم:

لم تمتْ ، هاهي تبكي، لاداعي لإحضار الطبيب، أرجعوها لمكانها.

أعادوني لمكاني، علمتُ أنني رأيتُ الموت بشكل عابر، وأني لأشهد بكلّ صدق، أن لحظة الموت هي أكبر نشوة وأجمل فعل يقوم به الجسد وهو يتخلّص من أعباء الجسد والآم الأعضاء المرتبطة مع بعضها فقط لجلب المتاعب للروح وتشويه السمو الذي خلقت لأجله الأرواح.

في اليوم التالي زارني طبيب، تمعّنني وجسّ نبضي وقاس ضغطي. كان شابّا صغير السن، شعرتُ بعينيه براءة وفي حروفه شفقة عليّ، خرج بعد أن حدّق بي وهزّ رأسه آسفا، هل هي شفقة، أم أنه اكتشف مرضا خطيرا في جسدي؟

مضى ذلك اليوم تاركا فيّ أسفا كبيرا، هو أنني لم أفلح في مغادرة هذا المكان.

(إفراج.. إلى المجهول)

- ستخرجين غدا صباحا، لكن لاتعتقدي أبدا أنكِ حرّة أو خارج هذه الزنزانة.. ستكونين هنا حتى وأنتِ في بيتكِ، عيوننا تراكِ في كلّ مكان تذهبين إليه، ولدينا معلومات عنكِ في كلّ صغيرة وكبيرة. ستخرجين غدا، وربما تعودين بعد ساعات أو أيام.. قالها السيد الذي أحاطه الحرّاس والضباط، قالها وكانتْ يده تُشير إليّ وتفصح عن غضب وقسوة أكثر من كلماته المرعبة.

لم أستطع تصديق ماقاله..! ولم أستطع النوم، وأنا أتخيّل أنني ساغادر هذا المكان، وأسأل نفسي كثيرا، إذا غادرت هذا المكان، هل سيغادرني هو؟

هل أستطيع أن أعيش حياتي كما أنا، بعد هذه التجربة الكابوسية؟

هل سأبقى كما أنا؟ أنا بكلّ كياني وجسدي المنتهك وروحي الكارهة للوجود.

أشبه بدحرجة رأس مقطوع في مسلسل تلفزيوني، نهضتُ أواجه مجموعة من الضباط والحرس، كانوا نسخة مكرّرة الشكل لأكثر من خمسة أو سبعة رجال. في غرفة التحقيق، قرأوا عليّ تعليمات كثيرة تتضمن قولهم الذي ينصّ على أنني مازلت في السجن رغم إطلاق سراحي، وأنهم معي في كلّ الأماكن وعيونهم تحيطني، وأن هاتين العينين

اللتين أحملهما لايعودان لي، إنما هُم مَن يرى بها. تحذيرات ووصايا وتعليمات وشتائم وتفاهات لاتنتهي، قرأوها بغضب وانفعال، وأنا أصغي دون أن أعرف عم يتحدثون..!

وقّعتُ على بعض الأوراق، اقتادوني إلى ممرّات بعد أن غطّوا عينيّ، لأجد نفسي أمام بوابة حديدية عملاقة وعلى جانبيها حرّاس مدججون بالأسلحة والعِدد الثقيلة.

كانتْ سيارة أخي تواجه المكان من جهة مقابلة، يقف معه اثنان منهم، يكلّمانه ويتداولان معه بعض الأوراق. دفعني الحارس الذي يقف خلفي:

يالله روحي.

اندفعتُ إلى جهة السيارة التي كانتْ مستعدّة للانطلاق، كان أخي يجلس خلف المقعد متوترا، انطلقتْ بنا السيارة واندفعتْ ورائي أضوية البناية وعتمتها وأشباح حراسها، فيما بدا الشارع أمامي وكأنه يمدّ الطريق إلى مالا نهاية.

لم يستطع أخي قول شيء، كان صوته متحشرجاً بين الكلام وغصة البكاء، فبدأتُ ببكاء لم أكن أحسب له حسابا ولم أستطع إيقاف نفسي عن إصدار أصوات في نحيب لم أعرفه من قبل.

لم تظهر الشمس بعد وبغداد غائبة عن الوعي، تنام على ضيمها ومهانة أبنائها. بدأتْ مكبرات الصوت بالأدعية والتواسيل للرب في أن يرحمنا من شرّ أنفسنا، أدعية وطلاسم بأصوات مبالغ بها، تبدأ قبل الأذان، حيث يدعو أحدهم الناس للاستيقاظ صارخا بهم:

الصلاة خير من النوم، فتتوالد أصداء ترنّ في عتمة الغبشة الكئيبة التي تبدو وكأنها ستدوم على هذه المدينة المكتظّة بالدم عبر التأريخ.

كان الجميع ينتظرون. يتجمهرون أمام الباب كأنهم جسد واحد برؤوس كثيرة، أهلي جميعهم، استقبلوني بصراخ وعويل كاد يبعث بي إلى الإغماء، عانقني الجميع، لأستقر أخيرا بحضن أمي التي ضمّتني إليها وأعادتْ بي بعض الدفء والشعور بأن ثمة مابقي لي في هذا العالم.

مرّتْ أشهر طويلة وأنا لا أنام إلا بحضن أمي، ولم يكن نومي إلا لحظات لأصرخ من جراء كوابيس الأشباح وهي تنهش جسدي، أصرخ واستجير بأمي، فتبعدهم عنّي بأسماء الله وأدعية الصالحين. ليس من السهل أن تبرأ من علّة مختومة في مخّك وقلبك وروحك، وليس من السهل أن تجد مَن يتحمّل صراخك وجنونك ويحتوي آلامك. مَن سوى الأم التي لايعوّضها أحد، أمي التي منحتني وقت راحتها وحياتها وجعلتني أستطيع أن أحضن ابنتي وأمنحها بعض حناني وحبي.

لم أستطع البوح بكلّ شيء خوفا منهم، طلبوا مني الصمت ولا أقول أي شيء عن مشاهداتي وماتعرضتُ له في الحبس..!

لم أستطع قول كلّ شيء، لأنني كنتُ أشعر بالعار والخوف من الفضيحة، أهلي أيضا، لم يسألني أحد منهم عن الأشياء المخلّة بسمعة البنت والتي يعرف الجميع أنها تحدث في هذه الأقبية المظلمة. أهلي يخشون العار بينهم وبين أنفسهم فلم يتطرق واحد منهم لهذ الشيء خشية الفضيحة.

أحاول استعادة نفسي من خلال أمي، ألتصق بها وأعود لطفولتي معها، أحاول جهدي أن أنظّف ذاكرتي من ظلمات السجن وما تسبّبه لعقلي من خراب وما ألصقه بي من رعب ترسّخ معي في لحظاتي التي أعيشها.

هي عودة لغرفة أمي التي هي معبدي والذي يربطني بتلك القوة العظيمة الغامضة بداخلي، غرفة أمي التي تنساب منها آيات الله وأدعية الصالحين ممزوجةً ببخور سحري ينفذ إلى أعماق الروح وينتشلني من كلّ قلق وحيرة، لكن الأمر لم يعد كذلك، لقد باءتْ كلّ محاولات أمي ومحاولاتي بالفشل في أن يعود الأمر كما كان عليه..!

لقد تغلّب الظلام على كلّ محاولات الضوء في داخلي وصارتْ الأشياء من حولي عبارة عن كوابيس يتخللها صراخ مساجين وظلام حالك وأشباح حراس و رجال عُراة يرقصون على جسد بنت صغيرة ويهتفون باسم الله والقائد والوطن. أحاول العودة وأريد أن أرسم أملا لكن دون جدوى، أفتح أبوابا وهمية من خلال ابنتي، أداعبها وأبتسم لها، وأكذب على نفسي وأنا أحاول رسم مستقبلها بشكل يدعو للأمل، لكنني أتراجع وألوم نفسي ويتضاعف حزني وأنا أفكّر بما ستكون عليه ابنتي في ظلّ هذا الحكم وهذا الوطن وهذه الناس التي لاتعرف الرحمة.

لم ينفع معي الأطباء ولا الأدوية، ولم تنفع معي آيات الكتاب وأدعية الأنبياء والأولياء. لقد سيّطرتْ عليّ صحوة الشر وكأنهم زرعوا برأسي مجسّات اليقظة السوداء الحالكة المليئة بالفزع والذعر. لقد فارقني النوم، وإذا رضخ جسدي لغفوة بتأثير التعب، فإنني سأواجه الجحيم من

خلال الكوابيس التي تتكرّر وتتكاثر بصورها المرعبة، فأستيقظ كالغريق شاهقةً بطلب النجدة، فتهرع أمي لتبعث بي النَفَس من جديد.

(ذاكـرة مُرّة)

طيلة فترة زواجي من محمد، وطيلة مرحلة عيشي في بيت أهله، لم أنعم بلحظة سعادة. لقد كان الجو مشحونا على الدوام، ولديّ شعور دائم بأن ثمة مؤامرة في طريقها اليّ. كان والده سكيّرا فظّا، وحين يثمل يزداد عدوانية وعنفا وعصبيّة ولا يردعه شيء في أن يشتم ويضرب بيديه وقدميه دون رحمة. يبدأ بالصراخ ثم يهجم على زوجته التي لاتستطيع الدفاع عن نفسها إلا بالصراخ وطلب العفو، لكنه يزداد جنونا وتهوّرا وهو يستعيد أيامه التي كان يعيشها كرجل شرطة لا واجب له سوى تعذيب الآخرين، أما أنا فأهرب إلى غرفتي وأصمّ سمعي عن تلك الأصوات الهمجية التي تتواصل لساعات طويلة.

حاولت مرارا أن أكسب ودّه، لكنه يمزح معي مزاحا ثقيلا مبطّنا وهو يردد:

آه.. كيف أخذك منّي هذا محمد؟،، أنت لازم تكونين الي.

ويضحك مقهقها كاشفا عن أنياب شريرة لابراءة بها. ويستمرّ بغزله لي ولحسني، وأنه لم يشاهد جمالا قي حياته مثل جمالي، أغيّر الموضوع وأنا أردّد كلمة: أبي، على اعتباره بمقام والدي، لكنه يتجاهل كلامي ويستمر بمزاحه عن تصوراته بأنني سأكون له في النهاية.

استمر هذا السكيّر بالتطاول وهو يمدّ يده إلي بحجّة المزاح، حتى وصل به الأمر إلى أن رأيته يتلصّص عليّ في غرفتي وأنا نائمة، فصرتُ أقفل باب غرفتي عندما يكون زوجي في الواجب.

ذات مرّة استيقظتُ فزعة وأنا أراه في غرفتي واقفا مُتفحّصا جسدي وأنا بملابس النوم، فصرختُ به: كيف دخلتَ غرفتي؟، فضحك رافعا المفتاح بوجهي، قلت: ماذا تفعل هنا؟

فأجابني مبتسما: أردتُ الاطمئنان عليك.... انصرف وتركني أرتعش ولم أنم طيلة الليل. أبلغت زوجي بما حصل، لكنه غضب منّي واتهمني بالجنون، وحذّرني من الكلام بهذا الموضوع مرّة أخرى، لأن والده لو سمع بهذا ستكون مشكلة كبيرة لايمكن أن تنتهي، ولم أستطع تفسير إجابته للآن..!

أمضيت وقتي معهم بحذر وخوف وقلق، مما تسبّب بارتباك في شخصيتي وصرتُ وكأنني أعيش حالة نفسية مرضيّة واضحة تبدو عليّ أمام الآخرين. تمرّ الأيام مصحوبة بمشاكل وأحداث مقرفة من جراء سلوكياتهم جميعا، فإن أم محمد تشعرني دائما وكأنني خصم لها وهي تحاول التغلب على هذا الخصم بكلّ الوسائل، لدرجة أنها تفرح عندما تتصل إحدى عشيقات محمد أو عاهراته، فتهرع بالتلفون إليه وهي تهمس له بكلمات لاتريدني أن أسمعها وهي تنظرني بطرف عينها لتوصل رسالتها الخبيثة ولتبلغني أنه مع واحدة على الهاتف. كانتْ أمه امرأة حقودة وكريهة، فغرستْ هذا الدسّ اللعين في جوارح بناتها اللواتي كرهنني دون سبب وأصبحن يجهرن بحقدهن تجاهي بأساليب قذرة وخالية من

الإنسانية، فهنّ يحضرن بشكل يومي تقريبا من بيوت أزواجهن ليتجمهرن حول مائدة الطعام التي أقوم على الخدمة فيها، وتنتهي بتلال من الصحون والأزبال التي يجب أن أعنى بها وحدي.

كانتْ أم مُحَمَّد مثالا للمرأة الشيطان التي وجدتْ نصفها الآخر مع شيطان آخر هو والد مُحَمَّد، الشرطي المتقاعد السكيّر العنيف فاقد الغيرة والشرف، والنتيجة أنهما أنجبا عائلة مليئة بالحقد والخيانات، أنجبا صاحب ملف الخيانة الكبرى في تاريخ الجمهورية العراقية والذي أصبح اسمه رمزا للخيانة والنذالةفي زمن قيادة الرئيس صدام حسين الدكتاتور الكارتوني.

طيلة فترة وجودي في هذا البيت اللعين وأنا أشعر بكارثة تقترب منّي ومن ابنتي، لكنني كنت أستعين بأدعية أمي وألجأ لله الذي أثق بأنه سوف يحميني ويبعد عنّي الشر. لم أكن أتوقع أن تصل بهم الأمور إلى هذا الحدّ من الإجرام، فكيف لرجل يترك زوجته وابنته – الطفلة الوحيدة – في مواجهة أعنف وأقسى نظام في التأريخ ويهرب لطلب اللجوء في دول أوربا، فقط ليمارس حياته الماجنة بحريّة أكثر وملذّات أوسع. مُحَمَّد فاقد الرجولة والشهامة، مُحَمَّد الذي طلب منّي ذات يوم أن أكون مع أحد أصدقائه في الفراش، فاصابني الهلع والجنون، لكنه تراجع حينها وهو يبرّر، أنه يمزح، لكنني رأيتُ في عينيه حقيقة مايرمي إليه من قصد، فهو يريدني أن أكون مع أحد أصدقائه في فراشه، لغرض ما، مازلت أجهله. تسلّسلتْ أحداث هذا الموضوع وصارتْ متكاملة لديّ تقريبا ...

تذكّرتُ بعدها أنه أحيانا يجبرني على الإجابة على الهاتف، يطلب منّي الإجابة على المكالمة ويمثّل أنه بعيد عن جهاز الهاتف، وعندما أرفع الحاكية يأتيني صوت أحد اصدقائه، وبعد السلام يطلب منّي ذلك الصديق أن يتكلم معي،

يبتعد زوجي فاسحا المجال لصديقه في استدراجي بالكلام، ويواسيني في أنني أستحق أفضل من هذه الحياة وأنني جديرة برجل يتناسب وجمالي وحضوري وفتنتي التي لايحضى بها إلا الرجل المحظوظ. ويذهب في كلامه بأن زوجي شخص أناني ويحب الذهاب مع أي امرأة تصادفه ومهما كانتْ، وأن الرب يساعدني كيف أتحمّل هذه الحال معه. عرفتُ اللعبة وتركته يتكلّم بينما زوجي يصغي من بعيد ويلاحظ ردود أفعالي، فقلت للرجل:إنه صاحبك وأنتما معا منذ زمن بعيد، وأنت تعرفه أكثر منّي وكلامك هذا صحيح، وكلّ ماقلته عنه أعرفه، لكن لا حيلة لي.

أجابني بأنه يعرف أن لاحيلة لي، لكنه يستطيع أن يساعدني في الخروج من هذه الحياة بشكل نسبي، وذلك بأن ألتقيه وأذهب معه ونستمتع بممارسة الحب نكاية به ومتعةً لنا، فسألته وهل هو يعلم أنك تتصل بي..! فتلعثم ولم يجبني، وأدرك بأنني كشفتُ اللعبة. فشتمته بكلّ ما أستطيع من لغة وأقفلت الخط معه.

فضائح كثيرة مرّتْ ولم يعرفها أحد، وكانتْ غلطتي لأنني لم أتحدّث لأحد بها ولم أشتك لجهة ما بخصوصها. مرّة وعن طريق الصدفة اكتشفتُ إحدى علاقات مُحَمَّد المشبوهة مع بنت من منطقة مجاورة لنا،

وكان مُحَمَّد يحتفظ ببعض الصور والرسائل لها، وكان يهدّدها بين حين وآخر بهذه الأوراق التي يحتفظ بها في خزانة ملابسه التي نتشاركها أنا وهو. عرفتُ الحكاية من خلال تجسسي على الهاتف من غرفتي أثناء حديثه لتلك البنت الغبية.

حتى تمكنّتُ من الاتصال بها وتحديد موعد معها، أعطيتها كلّ الصور والرسائل، ونصحتها بالابتعاد عن زوجي وأن تكفّ عن بيع نفسها للرجال بثمن بخس وأن تحتفظ ببعض الشرف لنفسها ولعائلتها، وكانتْ منذهلة وهي تراني ومتعجبّة أنني بهذا الجمال والطول، و هي امرأة قبيحة برأس كبير دون رقبة وبشرة سمراء تميل للزرقة، وأسنان غير منتظمة ووجه لايملك شيئا من الجمال، نظرتْ إلي وهي تقول:

معقولة أنت زوجة مُحَمَّد، كيف يخونك هذا السافل؟.

(عَودة للغَرق)

تمرّ الأيام بنفس القلق و الخوف والترقّب، فأنا الآن مُراقبة بكلّ تحركاتي وأشعر وكأنني مازلت في زنزانتي المحاطة بالحرس والظلام والوحوش المفترسة. يزورني أحد الضباط بين فترة وأخرى، ويجتمع معي في البيت تحت أنظار أهلي. أسئلته وأجوبتي تتكرران في كلّ لقاء، لاجديد ممكن أن أضيفه ولاجديد لديه سوى تحذيرات تختلف فيها نوعيات التهديد التي تتضمنه. صار هذا الضابط مثل ظلّي، أراه في كلّ مكان أقصده، ويزورني مرّة أو أكثر في الأسبوع الواحد. قال لي مرة بأنهم لايمانعون بعودتي للجامعة، وقال بمكر، إنهم يعلمون بأنني ذهبتُ لإدارة الجامعة من باب العودة للدراسة، قالها وهو يبتسم بسخرية وليؤكّد أنهم يعرفون كلّ تحركاتي.

عدتُ من جديد للدراسة في زمن كان الحصار فيه قد سلب ماء الوجوه من الجميع، حيث تعاون الأمريكان والبعثية ومن يرفدهما دوليا في سحق الشعب العراقي سحقا كاملا، وحوّلوه إلى شعب (الزامبي) الذي يذرع الشوارع ويحلم بأكلِ بعضه.

لم أستطع أن أكون كما يفترض أن تكون عليه طالبة الجامعة، لقد اعترضوني وسدّوا عليّ كلّ الأبواب وصاروا يلاحقونني بشكل أكثر تشدّدا ومضايقة. بين يوم وآخر يتمّ استدعائي لغرفة عميد

الجامعة، أدخل لأجد نفس الضابط الذي يزورني في البيت جالسا في مكان العميد، حيث يكون العميد قد غادر ليتيح له فرصة استجوابي وتكرار الأسئلة الغبية ذاتها. لا قدرة لديّ لأن أفعل شيئا، ولا أستطيع سوى الاستجابة لهم ولاستدعاءاتهم التي أصبحتْ تضيّق عليّ وتتسبّب بجنوني.

طلبتُ بشكل ودّي من الضابط أن يتوقف عن طلبي في الجامعة، وأن يكتفي بزيارتي للبيت، لأن ذلك يتسبب بإحراج لي ولايمنحني فرصة للتركيز في دروسي، وأن الطلبة يتهامسون عنّي بكلام يؤذيني ويزعجني كثيرا، لكنه ابتسم وأخبرني بأنه يستطيع فعل ذلك، لكن بشرط..! وعندما سألته عن الشرط، قال سأخبرك به عندما أزورك في البيت قريبا. قالها وهو يبتسم بخبث ونذالة، أوشكتُ أن أقول له أعرف: قصدك أيها الكلب، لكني تراجعتُ وانصرفتُ لاتأكّد منه في اللقاء القادم.

بعد يومين زارني الضابط اللعين ومعه ملفّات تكاد تندلق أوارقها خارجا لكثرتها، جلس قبالتي مبتسما وقد غيّر من نبرته وحاول أن يكون لطيفا في كلماته:

اسمعي، هذه الملفّات هي كلّ قضيّتك، وأنا المسؤول الأول عنها، وباستطاعتي أن أساعدك كثيرا من خلال إخفاء البعض السيّء منها وإضافة تقارير جديدة تُساعد في براءتك وتعضيد موقفك في هذه الجريمة، الجريمة التي أعرف أنك بريئة منها.

قلتُ: إذًا أنت تعرف أنا بريئة، لِمَ كلّ هذه الإجراءات والمضايقات والظلم الذي أواجهه؟

قال: هي إجراءات روتينية، وهذا هو النظام الذي نعمل به، إن ماقام به زوجك ليس سهلا.

قلت: لقد قلتها، ما قام به زوجي، ماذنبي أنا؟

قال: اسمعي،، أنا قرّرتُ مساعدتك وإخراجك من هذه القضية وذلك بكتابة تقارير تثبت تعاونك وانصياعك للأوامر، وهذه شغلتي أنا وأعرف كيف أقوم بترتيبها بما يتماشى مع الوضع الآن، وبذلك سنرفع عنك المراقبة ونخفف عنك العناء الذي أعرفه وأحسّه من خلال حديثي معك. لكن، مثل ما أبلغتك، عندي شرط.

قلتُ: ماهو شرطك؟

قال وقدّ ارتعش شاربه المستعار من سيده صدام:

أريدكِ.

قلتُ: ماذا تقصد؟

قال: أريدكِ أنتِ، فأنا تجاوزتُ الإعجاب بكِ، وصرتُ أحبّك.

قلتُ: أرجوك حضرة الضابط، أنا سيدة متزوجة ولي طفلة عليّ أن أقوم بتربيتها، أرجوك لاتستغل ضعفي وهواني وتنفذ لي من حيث قدرتك وسلطتك، أرجوك لاتكرّر هذا معي.

ضحك بقوّة وهو يقول:

متزوجة، هل أنت متزوجة الآن؟

قلتُ: نعم سيدي، أنا على ذمّة رجل، مهما كان.

قال: وهل هذا الرجل الذي غدر بكِ ورماك في السجون لمجرد أن يحصل على اللجوء في دول الغرب تعتبرينه زوجك؟ هذا الخائن الذي ضيعكم جميعا لأجل طموحه بالملذّات وحياة الغرب الماجنة، إنه لايستحقّك، أريدك أن تفكّري بشكل يخدمك ويخدم ابنتك وعائلتك وأن تستغلي الفرصة التي أعرضها عليك لتخرجي من هذه التهمة،

أنا لا أريد ردّك الآن، سأمنحك وقتا للتفكير، سأتلقّى الخبر في الزيارة القادمة، لستُ أريدك زوجة، ها، هل تعرفين قصدي؟ أرجو أن تفكّري بشكل جيّد ولمصلحتك ومصلحة ابنتك (وأشار بيده للفايلات) أنتِ هنا، حياتك ومستقبلك في هذه الأوراق التي معي.

في اليوم التالي تمّ استدعائي لغرفة العميد، كان ذلك خلال الامتحان النهائي الذي يقرّر مصيري لتجاوز السنة الدراسية، أجبروني على الذهاب بعد أن اعترضت، ذهبتُ لأجد الضابط جالسا كعادته في مقعد العميد مبتسما وكأنه ينتظر حبيبته، قلت له:

سيدي لديّ امتحان نهائي، كيف سأستمر بدراستي وأنتم تضيّقون عليّ هكذا؟

ابتسم وهو ينعّم صوته:

لايهمك، سأعيد لك الامتحان، مايهمني الآن هو جوابك لي.

قلتُ:

أي جواب؟.

فتجهّم وجهه وغلظَ صوته:

ها، إذن أنت لاتذكرين..! هذا مؤشر في غير صالحك.

قلتُ:

عَم تتحدّث؟

قال: عنّي وعنك، وعن فرصة خروجك من هذه المشاكل.

قلتُ: لم أفهم.

قال بغضب: اسمعي، باختصار، تأتين معي، لديّ مكان قريب، ساعة واحدة تكفي، وبعدها سأكون صديقا وفيّا ومخلصا، وأساعدك كثيرا في كلّ شؤونك، وأجعلك إنسانة حرّة وسعيدة، وأعطيك المال، وأشتري لك ماتشائين، هي مجرد ساعة، ساعة واحدة فقط.

لم أجبه، وقد اعتراني الخوف وصارتْ الأشباح تتقافز أمامي، قمتُ من أمامه وخرجتُ من الغرفة، من الجامعة وتوجّهت للبيت واتخذّتُ قراري بترك الدراسة.

أبلغتُ أمي بأنني لاأستطيع إكمال الدراسة، وأنني بصدد البحث عن عمل لأعيل نفسي وابنتي وأخرج قليلا من جو الكآبة الذي صار يحاصرني دون رحمة. اعتكفتُ في غرفتي أياما طويلة وأنا أفكّر بالانتحار، لكن صوت أمي وهي تقرأ كتاب الله والأدعية يعود بي إلى السكينة ويضيء بعض الأمل في روحي.

(تجربة عمل)

العراقيون بشكل عام يعيشون ليومهم، لايفكّرون بالغد أو ما سيكون عليه المستقبل، ويخضعون بشكل تام للحاكم ولايعترضون على شيء مهما حصل لبلدهم من كوارث ودمار. فبرغم لكلّ ماجرى في فترة الحصار وماتلاها مازالتْ الجماهير تهتف للقيادة والقائد ومازال الإعلام يرفع نفس العناوين ونفس اللافتات الوطنية والقومية التي يضحك بها مجلس قيادة الثورة على ماتبقّى من بقايا البشر في أرض العراق.

كنتُ واحدة من هولاء الناس الطيبين السُذّج الجاهزين للتضحية أو الموت أو قتل الآخرين بتحريض ما، لكنني وبعد تجربة السجن وجدتني أختلف عنهم وأنأى بنفسي على أن أكون واحدة منهم. لقد اختلفتْ تصوراتي بحكم التجربة المريرة التي خضتها في السجن وقادتني أفكاري الجديدة لأن أجبر نفسي على أن أكون أقوى وأكثر حذرا في القادم مما سيأتي من أحداث في حياتي القادمة. لاشيء يستحق أن نضحّي لأجله، نحن محكومون بهذا الجسد الذي يرحل بنا أينما شاءت الظروف فلا (نموت ويحيا الوطن) ولا (بالروح بالدم نفديك ياصدام)، فإن أوطاننا الحقيقية هي أجسادنا التي تمنحنا الفُرص في أن نشعر اللذة والسعادة أو العكس، حيث يمكننا رؤية

الجحيم من خلال أجسادنا الجاهزة للألم بسبب مانصنعه نحن ومانجلبه بأيدينا لأجسادنا المسكينة.

علاقتي بالدين أخذتْ تتمحور وتأخذ قوالب مليئة بالشك، وصارتْ صورة الرب هلامية تقترب وتبتعد وأنا أعيش ذاكرة الحبس وظلم الجلادين واستخفافهم بكلمة الله وما يحيطها من مقدسات. بعض التجارب يزيل الصدأ وبعضها يطلي المخ بوعي جديد وحكمة مخيفة ربما تقود للإلحاد، أفكّر كثيرا بالرب وأخاف منه ومن أفكاري.

مايشدّني بالمكان ومايربط مخيلتي بطفولة مليئة بالخشوع من خلال بيتنا وأدعية أمي لم يعد كما كان، لقد تداخلتْ الأمكنة وتفوّقتْ صورة السجن ورائحة الزنزانة الزنخة على مناخ ذاكرتي، فتحوّل الوطن إلى مرحاض قذر، ضيّق، بلا نافذة، فماعاد كلام الوطنية الذي يغرسونه في أدمغتنا أيام المدرسة نافعا، ولم تعد تعتريني مشاعر الخشوع لكلمة وطن وأرض وانتماء. أنا الآن جسد حرّ ووطني سيكون أي مكان نظيف أسترخي به وأشعر بالأمان فيه، لقد أفقدوني الكثير من الأشياء التي كانتْ تشكّل أجزاءً كبيرة من حياتي.

أهلي الذين فتحتُ عيوني على صورهم وبنيتُ أحلامي على ضوء حروفهم وحنوهم الكبير، هُم أيضا تباعدتْ صورهم وتحوّلوا إلى أشباح لاتتّضح ملامحها ولا أشعر نحوهم كما كنت من قبل، لقد تحوّل بعضهم إلى متفرّج على خساراتي وعذابي في بيت الخائن الذي زوجوني له وأصرّوا على بقائي معه. خسرتُ الكثير من كياني الذي رسمْته ذاكرتي

عبر سنين كنتُ أعتبرها جميلة، هذه السنين ذهبتْ أيضا وتحوّلتْ إلى صور بشعة بملامح أهلي الذين ساهموا بشكل وآخر بمأساتي.

قررتُ أن أكون أنا. سأبني نفسي من جديد، ولا أنتظر شيئا من أحد، لذا، بدأ مشواري في البحث عن العمل..

لم أجد فرصة عمل إطلاقا. طرقتُ كلّ الأبواب، والجواب هو الرفض بسبب وضعي الأمني وسيرتي المسجلة لدى الحكومة... أحيانا يستلطفني بعض المدراء ويعدونني بفرصة، لكنهم في المرة القادمة يعتذرون..

جاءت الفرصة وعملتُ في مصرف تابع لأحد رجال الأعمال من بيت (كبّة)، حدث ذلك من خلال توصيات عن طريق أصدقاء لأخي الأكبر. فجأة وجدتُ نفسي سكرتيرة للمدير الذي رحّب بي أجمل ترحيب وأوصى الجميع بالاهتمام بي وتدريبي بشكل مناسب، وكان يطلبني بين لحظة وأخرى ليسألني بأمور كثيرة لا علم لي بها، ويطريني بكلام جميل ينم عن سعادته بوجودي معه في العمل ويلمّح بشكل وآخر عن إعجابه بي وبجمالي.

مرّتْ فترة تجاوزتْ السنة وأنا أعمل مع مجموعة طيّبة من موظّفي وموظّفات المصرف التابع للسيد المدير، هذا الرجل الذي يبدو على مستوى من الوقار والهيبة والذي يتابع بدقّة كلّ تفاصيل العمل ويعرف كلّ صغيرة وكبيرة عن العاملين معه.

كان الضابط مازال يتابعني ويزورني في البيت، ولا أعرف السبب أنه لم يزرني في العمل، وكنت أشكّ أن مديري يعرفه حيث لمح لي ببعض المعلومات التي لايعرفها غير ذلك الضابط اللعين عن قضيتي.

تمرّ الأيام والمدير يحاول إظهار اهتمامه وإعجابه من خلال تقديمه بعض المكافآت والمنح لي ويخبرني أن هذا الاهتمام لي أنا فقط ولايريد أن يعرف به من يعمل معي في المصرف، كنتُ أشكره وأردد كلمات احترام شعبية (عمّي أو أبي) لكنه كان يغضب ولايحب سماع هذه الكلمات.

حتى جاءتْ اللحظة التي صرّح لي بها أنه يريدني، كانتْ لحظة مقرفة بالنسبة لي، فالرجل أكبر من والدي، والطريقة التي طرق بها الموضوع كانتْ مرتبكة ومخزية، طريقة ذكّرتني بضباط التحقيق وأساليبهم في التسلل لاختراق نفوس الأبرياء:

- اسمعي لميس.
- تفضل أستاذ.
- إني من زمان أريد أصارحك،، ومتردّد.
- خير.
- إني أعرف كل شيء عنّك، وأعرف قصة زوجك.
- نعم.
- أنتِ حلوة وطيبة وتستاهلين كل خير، وإني جدا معجب فيكِ.
- أستاذ . . . .
- اسمعيني للأخير، إني أريدك زوجة إلي على سنة الله ورسوله.

- بس أنت تعرف إني على ذمة رجل..!

- أعرف، وأعرف هذا الرجل راح وصار ماضي قديم وماراح يرجع أبدا.

- اسمع أستاذ الله يخليك، أولا ما أعرف زوجي متى يرجع أو مايرجع، وثانيا أنت رجل كبير بمقام والدي، والأهم من هذا أني ما أفكّر أتزوج بعد إطلاقا،

- شوفي أنا الآن بمثابة شخص يقدّملك نصيحة، أنتِ ماخسرانة شي، أنا رجل غني وسأجعلك أسعد بنت في العالم، أما حكاية زوجك فهي لاتقدم ولا تؤخّر، لأن زوجك خرج ولن يرجع للعراق أبدا، إلا إذا أنتِ لديك تواصل معه وأنه وعدك بشيء.

- كأنك تتكلّم بطريقة ضباط التحقيق.

- لا، لا أبدا، أنا أخاف عليك عزيزتي، الحياة قاسية والبنت بحاجة لرجل يحميها ويسعدها، خاصة ونحن في العراق وفي هذه الظروف، أنا رجل قوي وثري ولي علاقات كبيرة، أرجوك لا تردي عليّ الآن، فكّري بالأمر وتذكّري جيدا أني أحبك وأقوم بأي شيء لأجلك.

- شكرا لنصيحتك، لكنني أعرف أن الموضوع لايحتاج تفكيرًا.

- هل ترفضين؟

- نعم أرفض، وأعلم انك ستطردني من العمل.

هنا ضحك المدير وبانتْ على ملامحه صورة غضب وسخرية:

- لعلمك أنا أعرف كلّ تفاصيل حبسك وماجرى لك، ورغم هذا مازلت متمسكا بكِ، لكنك على مايبدو لاتتعظين ولاتعرفين

مصلحتك.... ياليس لاشيء يدوم وماتملكين من جمال مؤقت لاينفعك، هذا البلد محكوم بثوابت صارمة وهذه الثوابت والقوانين تُطبّق فقط على الضعفاء والمساكين وأنتِ واحدة منهم وقد رأيتي ما رأيتي من عذاب في السجن، فلا تكرري المأساة، استثمري هذه الفرصة وخذي جرعة من القوة من يدي، يدي قوية وكريمة فلا تخسريها.

- آسفة أستاذ، شكرا لنصيحتك، لكنني قرّرتُ أن أكون حرّة وأواجه قدري كما أنا.

(٢٠٠٣ سنة السقوط)

لم أكن أعرف ماهي مشاعري في تلك اللحظة، اللحظة التي سقط بها تمثال الرئيس وتحوّل رأسه الى كُرة تتقاذفها الأحذية، كذلك أهلي، لم نكن نعرف ماهي مشاعرنا بالضبط، هل نفرح بالخلاص من حكم الدكتاتور وسنوات الظلم التي حلّتْ بنا على يده ويد حزبه؟ أم نحزن على دخول الأمريكان بكلّ قوتهم وجبروتهم وهم يدنّسون أرضنا ويقودوننا إلى المجهول؟

ابتهج البعض، وبكى البعض الآخر، واضطربتْ مشاهد الشارع العراقي، وكالعادة، صارتْ الناس تتبادل القصص والروايات بمخيلة هائجة عن كل الأمور التي حصلتْ والتي ستحصل. لا أعرف بالضبط كيف أصف حالتي، كأنني تحرّرت من أشياء كثيرة كان يفرضها عليّ النظام الساقط، وبنفس الوقت أشعر بخوف عظيم بداخلي من الآتي المجهول الذي أخذتْ ملامحه أشكالا ضبابية مريبة تبدو منذرةً عن سوء قادم وعن سلوك فوضوي يستعد له الجميع. كان منظر الناس وهي تقتحم البنايات الحكومية وتنهب الأموال والأثاث مُرعبا، وكانتْ حركة الجماهير وهم يحملون الأسلحة ويهرعون في الشوارع علامات مخيفة لما هو آت من الأحداث.

كأن العراقيين ينتظرون هذه اللحظة لتدمير بلدهم، حيث نُهبتْ المتاحف والمراكز الأثرية والمكتبات، ودُمّر أغلب الشواخص المهمّة من معالم ثقافية وحضارية وتجارية وظهرتْ عصابات مُرعبة تتقاتل على الغنائم بشكل علني دون خوف أو تردد، حيث لا أمن ولا شرطة ولا جيش ولا رادع أخلاقي أو إنساني يوقف الجموع الهائجة.

الشيء الوحيد الذي بقي سالما هو المنشآت النفطيّة والمراكز الدينية المتمثلة بالمراقد والأضرحة المقدّسة وبعض المساجد التي تحوّلتْ إلى تجمعات مُسلّحة تُثير الرعب والقلق.

بقدر ما استفّحلتْ سطوة اللصوص وظاهرة العصابات وتفشّي الجريمة والقتل العشوائي، بقدر ما زادتْ في الجانب الآخر نبرة التديّن وظهور نعرات دينية طائفية مسمومة، وصارتْ العلاقة طردية متضخّمة بين هاتين الظاهرتين اللتين كوّنتا طريقا جديدا للخراب الذي لا أظنه سيكون سهلاً.

كُنّا نراقب بحذر ماستكون عليه الأمور في ظل هذه الفوضى والعشوائية التي كانتْ تبدو وكأنها بداية حلم لعراق جديد، ذلك من خلال قراءة المشهد ضمن تعريف – الفوضى الخلاقة – التي كان يروّج لها الأمريكان وأصدقاؤهم، لكن الحقيقة غير ذلك تماما، لقد رسم الأمريكان رسمة جديدة لعراق مضطرب وشعب متقاتل لفترات زمنية ستطول وتأكل الأخضر واليابس.

في بيتنا الذي يقع في منطقة(الغالبية السنيّة) كانتْ قد بدأتْ تجمّعات غريبة وغير مألوفة لنا، مجموعات لرجال لم نرهم من قبل، بدأوا

بالانتشار والتزايد وصاروا يطوفون الشوارع ويدعون الشباب للانضمام لهم لحماية المنطقة والناس والمذهب - كما يدّعون -.

توقفتْ الحياة، حيث لاعمل ولا خدمات و لا وجود لمؤسسة حكومية حقيقية. الكلّ في البيوت والكلّ ينتظر ماسيفعله الأمريكان وما سيأتي به الأجنبي لنا، الأجنبي المتمثل بأمريكا والدول الطائفية التي هي إيران ودول الخليج وبعض الدول الأخرى العربية وغير العربية، إضافة للعملاء من العراقيين القادمين من الخارج وأعوانهم المختبئين طيلة فترة مراوغة النظام الصدّامي ومرحلة ترنّحه واستسلامه وسقوطه.

العراقيون منقسمون، منهم من يحلم بمنصب حكومي، فحاول جاهدا أن يكون قريبا من الأمريكان وأعوانهم، ومنهم من هرع للشوارع وشكلّ عصابات لسرقة المحال التجارية والبنوك والبيوت المهجورة، ومنهم من حمل سلاحه ليقاتل جهة لايعرفها، ومنهم من سحبته تجمعات ملثّمة شيعية أو سنيّة وجعلته يعيش الأحلام في الثروة والجاه أو الجنّة وحور العين وأنهار الخمر، ومنهم من جلس في بيته منتظرا المعجزة التي سيرمي بها الله إليه وهو جالس مع عائلته. وبهذا يكون العراق قد خسر أبناءه وضاعتْ الآمال في أن يعود بلدا من جديد.

لم يكن حظّي أفضل مما كنت عليه في زمن صدام ومخابراته، لقد ضاقتْ عليّ دائرة المراقبة والتهديد بشكل؟أكبر وصرتُ لا أعرف بالضبط مَن الذي يراقبني ويرسل لي ألغازا تُثير الخوف. وصلتنا بعض رسائل التهديد، فعلينا أن ننتمي لحركات لها أسماء إسلامية جهادية والا فنحن مع الكفار!

لا أحد يستطيع أن يسلم من هذه الفوضى وتفجراتها المتشظيّة. فإما أن تنضوي تحت لواء ما من هذه التكتلات والتجمعات المسلّحة فتعرض نفسك وأهلك للتهلكة، وإما أن تجلس متفرجا محايدا وبهذا ستكون موضعا للشكّ والريبة التي تمتليء بها الشوارع والأمكنة العراقية، وبهذا أيضا ستكون قد عرّضت نفسك وذويك لمصيبة لاتعرف أبعادها.

سادتْ موجة اللحى الطويلة والشوارب الخفيفة والدشاديش القصيرة المنتهية من الأسفل بأحذية مُسطّحة (شحّاطات)، تبدو وكأنها وُضعتْ لجعل المشهد كوميديا، هذا في المناطق السنيّة. أما في المناطق الشيعية،فقد اتّشحتْ بالسواد، وظهرت فُرق كثيرة ترتدي السواد بين مُلثّم وفارع، والجميع يكلّلهم السواد الذي أخاله وكأنه سيبقى لون الأرض والسماء العراقية لمديات بعيدة.

المرحلة التي تلتْ ٢٠٠٣ من أخطر مراحل العراق في تأريخه المعاصر، ومن أسوأ ما واجهه الشعب العراقي على المستوى الإنساني والحياتي، لقد أظهرتْ الأحداثُ المعدنَ الحقيقي للناس، وأزاحتْ الأقنعة التي كان يخفيها الخوف من السلطة الساقطة أو من الحواجز الاجتماعية التي تساقطتْ هي الأخرى بفعل الانفلات والحرية المتاحة بغياب الأمن والرقيب. لم يعُد جارك كما قبل. صار الحذر والشكّ يقتسمان لحظاتك وخلفهما مصير قلِق ربما ينهيك برصاصة غامضة من أقرب الجيران أو الأصدقاء ... مسلم مسيحي، شيعي سنّي، كلداني أشوري، ...الخ

تتضارب الناس بالحوارات عن التأريخ والتراث، ثم تتشابك الجموع بمعارك دامية عميقة في الكراهية والحقد والانتقام. جموع هائجة تطوف الشوارع بأسلحة مُرعبة، تقودها زعامات عربية وأجنبية زعامات سرقتْ الأموال من البنوك والمؤسسات وكرّستها لخدمة إشعال الحقد والحرب بين أبناء العراق الذين سحبتهم اللعبة لطرق الموت والفناء. زعامات ترطن بلغات كثيرة والعراقيون يسيرون خلف إشارات رسمتها تلك الزعامات ومن يقف خلفها من قوى أجنبية وإقليمية وعراقية داخلية يربطها جامع مشترك ومصالح مبيّتة نضجتْ وحان قطاف ثمارها.

زعامات تُخرج من العراق ماشاءتْ من تراث وآثار وذهب، وتُدخل ماشاءتْ من أسلحة ومسببات أذىً للناس والأرض والطبيعة العراقية.

العراقيون مشغولون الآن بتفريغ شحنات الحرمان القديم، يتبارون في تفريغ هذه الشحنات من خلال الانصياع للخطابات الدينية الطائفية، ويسيرون بطريق أعمى - سُنّة وشيعة . للانتقام من خصومهم وبداية لتعبيد طريق الجنّة الذين رسمها لهم قائدهم المعمّم، المعمّم الذي تسلّق بسرعة مُغتنما الفرصة في أن يكون السيّد والمفتي والمنظّر في كلّ شؤون الحياة.

سادتْ الشعارات الدينية الطائفية، وضاع الإسلام مُنشرخا بين طائفتين متقاتلتين مُتكارهتين حدّ الموت.

لم يعُد لنا سوى الابتعاد عن الشوارع قدر المستطاع وانتظار الفرج الذي يجب أن تضعه أمريكا ومن جاء معها من أجانب وعرب وعراقيين.

في الليل تهدأ الطبيعة، وبغداد تنام على كفّ المارد، لكن الناس لايهدؤون وبغداد تعيش كابوسها المرعب، كابوس غامض تشوبه أصوات الاستغاثات وإطلاق الرصاص وسقوط الجثث على الأرصفة وفي المزابل التي أصبحتْ تتكاثر بشكل عجيب.

لم تعد المشاهد المعتادة في طبيعة بيتنا كما هي، لقد أصبحنا نخاف من أي شيء، كأن يكون صوت الرصاص والمدافع أو صوت طرقات على الباب بفعل جار يحتاج لشيء أو عابر سبيل يطلب لقمة. أمي صارتْ تسهب بالدعاء والبكاء، وأنا أنظر لها وأسمعها فأزداد قلقا من الآتي.

لا أعرف أين ذهب الضباط الذين كانوا يملؤون بنايات الحكومة الساقطة..!

كنت أتمنى لو أن لي عينًا ترى الآن ذلك المكان الذي سُجنت به، وتلك الجموع من العساكر والحرس والموقوفين، تُرى ماالذي حلّ بكلّ هذه الكائنات بعد زوال سقف خيمتهم وعمودها القائد؟

(اسمُكَ يقتلك)

لم أسمع من أمي شيئا من هذا القبيل إطلاقا.

كان الدين بالنسبة لي إرثا أخلاقيا وطقسا روحانيا إنسانيا خالصا، وكان صوت أمي المخنوق بعبرة وخشوع وهي تخاطب الله جسرا وارف الجمال، أعبرُ من خلاله إلى جنّات الله الآمنة وملكوته العظيم الخلّاب.

ما الذي حصل ليتحوّل الدين إلى سيف دامٍ، ينزّ حقدا وظلما وكراهية.

قِفْ، انزلْ، ما اسمك؟

يعقبها صوت إطلاق رصاص وجثة مجهولة الهوية مرمية على الرصيف - بعد أن تُسرق مافي جيوب القتيل من أوراق -. اسمك تهمة وقرار بتجريم جاهز العقوبة لم تكن سوى الموت.

صار اسمك هو مَن يقرر مصيرك. الشيعة يقتلون عمر وأعوانه، والسنّة يقتلون عليّا وآل بيته ومحبيه.

وصارتْ الناس التي تخشى المفخخات والانفجارات المفاجئة يرعبها ترديد حروف أسمائها أكثر.

جموع همجية يشكّلون سيطرات في الشوارع، يبدو وكأنهم مكلّفين بقتل الناس فقط، يحاولون إيجاد أيما ذريعة تافهة لقتل الأبرياء.

إذا كان اسم زوجتك شيعيا، ستكون مأساتك أفضع، حيث تُقتل زوجتك على يد أبي جهل في السيطرة الأولى، بينما تُقتل أنت على يد أبي حسين في السيطرة الثانية حسب اسمك السنّي، وإذا كان لديك أطفال في السيارة، سيحتار الله في مصيرهم ويسود الظلام بانتظار معجزات ربانيّة جديدة.

صارتْ الأسماء قنابل موقوتة وصرنا نتمنّى لو أننا لا أسماء لنا.

عثمان جارنا لا أعرف من أي طائفة، أوقفوه في إحدى السيطرات التي ترفع الرايات السود. ابتهجوا وهم يرون الاسم. المسكين لم يسعفه الحظ في إبراز الهوية الأخرى التي اشتراها لنفسه باسم شيعي، لم يمهلوه سوى دقيقة ليقرأ الشهادة وهو ينهيها بـ (أشهد أن عليّا ولي الله) لم يسمع أحدهم المقطع الأخير حيث كانتْ الإطلاقات مبتهجة وهي تفلق رأس عثمان. رحل عثمان وبقيتْ زوجته المشلولة تحضن أطفالها وتنتظر رحمة الله التي غابتْ.

كاظم عبد الحسين فنان مرهف، لاعلاقة له بالأديان، أوقفوه بسيطرة يقودها أبو حفصة، تمّ قطع رأسه بسيف مرسوم عليه اسم الله، لأنه لم يعرف كم ركعة صلاة الصبح. رحل كاظم وبقيتْ أمه وأخواته دون معيل.

كلاب وحشيّة مسعورة تجول الشوارع .وتنشر الرعب في مدن العراق. أجواء عجيبة تنذر عن مساحات قاتمة في تأريخ العراق البعيد.

أصبحنا نخشى حروف أسمائنا، واذا ما ناداك أحدهم في الطريق مُردّدا اسمك كاملا، ستنبطح أرضا خشية الانفجار أو تهرب مُتذرعا بأنك لاتمتّ بصلة لهذا الاسم المفخّخ.

ضاقتْ عليّ دائرة المراقبة وازداد عدد المراقبين والمتابعين لتحركاتي، ثمة تجمعّات دينية، هي في الحقيقة قيادات بعثية خلعتْ الرداء الزيتوني وارتدتْ الزي الأفغاني الإسلامي، أراهم وأتذكّر جموع الضبّاط والحرس في السجن الذي تمّ قتلي به، لايختلفون بشيء سوى تغيير الملابس والأسماء التي أصبحتْ تأخذ طابع الكُنية حيث ستقود العراق آلاف السنين إلى الوراء.

يتبعني أحدّهم في السوق، يستوقفني بترديد اسمي:

لميس، لاتظنّي أننا تركناك، هل من أخبارعن مُحَّد زوجك؟

لم أجبه. كانتْ أكثر من صدمة. هربتُ بعد أن ظهرتْ على ملامحي كلّ التعابير التي كانتْ تلازمني في الحبس وبانتْ على سحنتي ألوان الهلع التي تنتابني أثناء التعذيب والاعتداء والإهانات.

كيف يحدث هذا؟

مَن هذا الذي مازال يبحث عن خائن غادر العراق منذ سنوات، والبلد الآن مُباح للأجانب والجواسيس والاستعمار؟

قالتْ لي أمي:

هؤلاء خسروا كلّ شيء، ربحهم الآن أن يتسلّوا بالضعفاء. هذا الكلب إذا رأيته سأقتله.

لم يقتصر الأمر على هذا، فقد ظهر آخرون يلاحقونني ويسألونني عن زوجي ويطلبون منّي أن أرتدي الزي الإسلامي والانضمام لجاميعهم التي أصبحتْ إسلامية بقدرة قادر.

صار خوفي أشدّ وأكبر مما كان عليه في زمن النظام المنهار، وصار اسمي تُهمة أخشى عواقبها.

أخاف من ترديد اسمي خشية أن يقود ذلك للملفّ الذي لصقه زوجي بحياتي، أتخيّل الملفّ هذا كعبوة لاصقة ظلّتْ تطارد مخيلتي وتعكّر عليّ صفوي.

اسمي الذي طالما دلّعتني أمي به وأهلي ومعلماتي في الابتدائية وأحباب طفولتي وصباي، اسمي الذي أخشى حروفه الآن لأنه ربما يقودني لفتح باب السجن من جديد وبدء الأسئلة القديمة عن جريمة الطيّار الذي ألبسني ذنبها وغادر باحثا عن ملذّاته وشهواته في بلاد الغرب.

اسمي، كيف سأعيده لما كان عليه؟.

(سمّني
لأكونَ ماسمّيتني
لا أستطيع، لأنني ريحٌ
وأنتِ غريبةٌ مثلي
وللأسماء أرضٌ ما
إذن، أنا لا أحد

لا أعرف اسمكِ

ما اسمُكِ؟

اختاري من الأسماء أقربها إلى النسيان)[1]

[1]من قصيدة لـ محمود درويش

(الملائكة تحملُ أمّي بعيدًا)

لم تكن أمّي مريضة، كانتْ مُتّقدة بالحيوية وحب العمل. لم تُشعرنا بأنها بحاجة لمساعدة في أمور البيت أبدا.

أصابتْها فجأة ذبحة صدرية خفيفة، سارعنا بها إلى المشفى وعدنا بها بعد تطمينات الطبيب بزوال الخطر.

تكرّرتْ الحالة خلال أيام، ولا علاج حقيقي ينهي آلامها وسهرنا معها كلّ يوم.

ذات يوم عُدنا بها من المشفى بعد أن قرّر الطبيب أنها ستكون بخير، لكن الأمر لم يكن كذلك، فقد تفاقمتْ الأمور وساءتْ الحالة جدا. في يومها كان التجوّال ممنوعا في بغداد بعد منتصف الليل ولايمكننا الخروج بها إلى المشفى.

بقيتُ معها في صالة البيت، حيث أحضنها وأنا جالسة خلفها، وأمسّد صدرها بيديّ وأردّد معها الأدعية والآيات، بينما أشعر بألمها ونبضها الذي يتسارع مرّة ويتباطأ مرّات.

كنتُ أطمئنها بأنها مجرد ساعات ونخرج مع الفجر للمشفى وستكون بخير، لكنها كانتْ تجيبني بكلمات بعيدة عن الموضوع، وتخرج بي من الأمل الذي يشعرني بأنها لاتتركني وتذهب وتجعلني وحيدة بشكل نهائي في هذا العالم الأسود الخانق بكلّ أجوائه.

كانتْ لحظات مُرعبة وأنا أمسكُ جسدها وأضمّها إليّ وكأنني لا أريدها أن تغادر، فأي وحدة وضياع سأواجه دونها؟ في حين هي تُشير لأخي بأن يأخذني لغرفتي كي أنام. هي لاتخاف الموت هي فقط تخشى الصدمة التي سأتلقاها في اللحظة التي تأكّدتْ أنها سترحل!.

كان صوتها يسترسل بتراخٍ وكأنه شريط قصير يُعيد كلّ ذكرياتي معها، حضنها الحميم ويديها الحانيتين، مشيتها وهي تجول في البيت بين المطبخ والغُرف والحديقة، قبلاتها التي هي بلسم يعالج هموم الوجود العراقي الصلب الأحمق، تعليماتها ووصاياها وخوفها علينا من كلّ شيء، صلاتها وخشوعها وأدعيتها.

هذه اللحظة التي بدتْ وكأنها نهاية الحياة والعالم بالنسبة لي، هذه اللحظة تبدو وكأنها نقطة حالكة تكثّفتْ بها قسوة الكون وغرابة تشكيل أجسادنا المنقادة لرغبة الطبيعة وإرادة الله. أقول يالله، يالله دعها معي، أو خذني بدلا عنها، يالله لم يحن الوقت بعد، أين سأذهب وبمن سأحتمي؟

لكن المشهد يطول، وأنا أتصنّع القوّة وأحاول تأجيل الفاجعة بكلامي الأبله ومفرداتي التي صارتْ تضيع أمام استرخاء أمي وهبوطها شيئا فشيئا بأجنحة بيض إلى وادٍ ذي زرع، تحفّها ملائكة، وتتساقط عليها زهور ملوّنة، وهي تبتسم - تكاد تضحك - وهي تقبض على كفيّ وأنا أزداد ضغطا لكي أعيق رحيلها، لكنها ارتجفتْ وبردتْ يداها واستسلمتْ، نامتْ بحضني، تماما، وكأنها تريدني أن أعيد لها جزءا من تلك الغفوات الحنونة التي منحتني إياها في حضنها طوال

عمري. صرختُ بأعلى صوتي، لكن أمي لاتريد سماعي فهي منشغلة الآن مع جموع ملائكة سحبوها بلطف وجمال، وحلّقوا بها في فضاء بغداد المعتم.

عمّ البكاء والصراخ في بيتنا المغروس في ظلام بغداد العراقية، ولم أصدّق الأمر، أصابتني دهشة حقيقة وانفجرتْ في رأسي أسئلة لاجواب لها..!

تُرى ما الذي سيحل بي بعد أمّي؟

كيف سأتدبر أموري وأمور ابنتي؟

كيف، ومع مَنْ سأواجه المصير؟

أسأل نفسي آلاف الأسئلة، فتظهر لي صورة الخائن الغدّار (محمّد) وأشعر بأنه سبب أول في كلّ ما حصل لي، حتى أني أتهمه بقتل أمي، فهي انهارتْ وضعف قلبها بسبب سجني وغيابي عنها . وقلقها على مصيري وهي تعرف تماما ما الذي تعنيه معتقلات صدام.

ستتغيّر حياتي كثيرا بعد هذه الفاجعة، وسأكون وحيدة إلى حدّ كبير، لذا عليّ أن أكون أكثر حرصا لأجعل ابنتي أوفر حظّا منّي، وأجنّبها الوحدة والضياع في هذا العالم.

(أعضاء بشريّة)

لايوجد مايدعو للغرابة، نحن جاهزون لتمهيد الطريق للحروب وتمزيق أجساد الناس..!

ألم نطبّل ونهزج طيلة ثماني سنين للحرب؟.

تلك الحرب التي أخذتْ روح العراق، بخيراته وثرواته وناسه.

مِنْ أين جاء ذلك الشعب الهادر، الصادح؟:

بالروح بالدم نفديك ياصدّام، في الوقت الذي تتمزّق به بنية العراق جغرافيا واقتصاديا وإنسانيا.

نحن العراقيين لاغيرنا، نحن مَنْ مهّد لكلّ الخراب وهذه الثمار المسمومة التي نذوق مرارتها والتي تقودنا جميعا لما نحن به الآن.

منظمات البعث بكلّ تنوعاتها وعلى رأسها الجيش الشعبي، أجهزة الاستخبارات والمخابرات، الأجهزة الأمنية والوزارات القائمة عليها، الجيش المتشعّب بكل تشكيلاته وأصنافه، مؤسسات أمنية واستخباراتية لاتُعد ولاتحصى، المخبرون الذين يشغلون مساحات البيوت والشوارع وغرف النوم ... مِن أين جاء كلّ هؤلاء؟

ماذا جنينا من كل هذه المجاميع والمؤسسات؟

لم نجن سوى التهلكة، التهلكة التي اشتريناها بأرواح كثيرة وأموال هائلة يمكنها إصلاح الأرض قاطبة..!

العراقيون هُم مَن أنشأوا الموت لأنفسهم، فمَن نلوم؟
ملايين من العراقيين اتّحدوا ووقفوا وقفة واحدة، ليعلنوا رغبتهم بتدمير بلدهم وتحطيم مستقبل الأجيال القادمة من بعدهم.
لانلوم أحدا، نحن الآن لانملك حتى شمّاعة نعلّق عليها أخطاء أحد ما.

في الفترة التي أعقبتْ (٢٠٠٣) وخاصة مرحلة (٢٠٠٤ - ٢٠٠٦). صار المشهد أكثر قربا لما هو متوقع.
البذور التي زرعها العراقيون أثمرتْ..!

ماذا نرى الآن في هذه المرحلة الانتقالية في تأريخ العراق؟
منظر الجثث والأعضاء البشرية الممزّقة، المرميّة بقصد فاعلها.

وما الذي سيفرزه هذا التراكم من الكبت والحرمان وضخّ الأفكار الأيديولوجية المشبعة بالانحياز والخنوع والتذلّل؟

تحوّل الإنسان العراقي إلى وحش كاسر في لحظة (لحظة غياب السلطة) بعد أن كان الضحيّة الخائفة المرعوبة المنطوية والمتسترّة خوفا من القوانين الصارمة والتُهم الجاهزة.

هاهو الآن، العراقي يملك الحريّة في عمل كلّ ماهو سلبي وإجرامي، ليعيد الكرّة ويكمل مسلسل الخراب العراقي، ليجهز على مابقي من أمل في بناء شيء.

وبما زاد الطين طوفانا، أننا مقبلون على أديان و طوائف وتشكيلات دينية جديدة لم نسمع بها مِن قبل، وهذه الأديان والحركات (السياسدينية) - إذا صحّ التعبير - وجدتْ لنفسها أرضا خصبة ومباركة في الذهنية العراقية الجاهزة للانخراط والانزلاق حدّ الموت في مستنقعاتها.

تكاثرتْ وسائل الإعلام (أسميتها في حينها وسائل الإعدام) وصارتْ الفضائيات التلفزيونية تتكاثر بالانشطار، حيث أصبحتْ محطات التلفزيون مدعومة من جهات عالمية وإقليمية وعربية وعراقية، وصارتْ الحروب والانقسامات تُدار بشكل مُبرمج ومنظم من جهات تراقب المشهد بدقّة وترسم خارطة العراق الاجتماعية حسب ماتتطلبه مصلحة هذه الجهة أو تلك. مات الذوق، وانتحر المنطق، وصار علينا أن نستسلم لكلّ مايطرحه المجرمون من أكاذيب و شعوذة وسُبل تفرقة بين الناس، لدرجة أن الأميين والإمّعات تسيّدوا المشهد وصاروا مراجع وحُكّامًا، وصارتْ الجماهير تلجأ للخرافات في حلّ كلّ مشاكلها. كانتْ تلك المرحلة تبدو وكأنها بداية نهاية المعرفة التي كُنّا نرى من خلالها النور مُتَمثّلا بوجود الرب الحقيقي الذي كُنتُ أعرفه من خلال أمي فقط.

أصبح مشهد القتلى في الشوارع مألوفا!

وصار الإنسان عبارة عن جهاز عاطل جاهز للتفكيّك. نرى جثة دون رأس، أو رأسًا مقطوعًا مفتوح العينين كأنه يبتسم لنا، كأنه يقول: ستكون مثلي غدا.

(إسراء تسافر للسماء)

إسراء طفلة حلوة، نشأتْ يتيمة، فبعد ولادتها عام (١٩٧٨) تأسّر والدها في السنة الأولى من الحرب العراقية الإيرانية عام (١٩٨٠)..... لم نعرف في بادئ الأمر عن أخي (رعد) شيئا، كان في عداد المفقودين. كانتْ تلك الفترة عصيبة، خاصة على أمي. مرّتْ سنوات طويلة، ليظهر أخي عائدا من الأسر. عاد رعد ليجد الاشياء على غير ماتركها، رعد ضحيّة للحرب والمباغتات الأمنية التي ألحقتْ بنا حيفا كبيرا. كلّنا ضحايا لوجودنا في هذه البقعة المشؤومة التي لاتفارقها الحروب والدماء والفواجع والمباغتات.

الأجواء التي نشأتْ بها إسراء (ابنة أخي)كانتْ مضطربة ولم تمهلها الظروف في أن تكون طفلةطبيعية.

كانتْ إسراء هي الأخرى ضحية منذ ولادتها، وجدتْ نفسها في فم الحرب، وعندما بدأتْ ترى، كانتْ الأشياء يلفّها سواد اللافتات ويؤطّر صورها الأسود. كان الجو الجنائزي هو السائد وكان النحيب هو بداية الصباح بالنسبة لها.

كنتُ قد تنقّبتُ في فترة محدّدة خلال تنقلاتي بين بغداد وبعقوبة، ليس فقط انصياعا لما هو سائد في الشارع، بل خوفا من

الغدر الذي قد يلحق بي من قبل الجماعات المسلّحة التي بدأتْ بملاحقتي أكثر من الأول.

ضاقتْ بنا الحياة، ولم تعد فرص العمل متاحة. وكغيرها من الناس حاولتْ إسراء أن تجد لها فرصة لتكسب منها العيش، فعملتْ في مؤسسة حكومية. في ذلك الوقت كانتْ بعقوبة من أكثر المناطق التهابا وفوضى، وكانتْ الميليشيات المتقاتلة تزدحم في هذه المنطقة، وكان قتل الناس سهلا، يحدث أحيانا دون مبرر.

وصل تحذير لبيت إسراء (نعلم أنك من عائلة سنيّة، لذلك لم نقتلك، نحن نحذرك للمرّة الأولى والأخيرة: اتركى العمل مع المحتل والحكومة العميلة، وإلّا مصيرك الهلاك).

توقّفتْ إسراء عن العمل على أثر نصائح الجميع، لكنها تردّدتْ على إدارة العمل لاستحصال وثيقة الانفكاك وبعض مالها من نقود. خلال هذه الفترة، كانوا يراقبونها، فنصبوا لها الفخ، وانتظروا اللحظة المناسبة.

في تلك الأيام بالذات اتّضحتْ ملامح الشخصية العراقية وتكثّفتْ ملامح صورة القاتل بسماتها المتّصلة تأريخيا بهذه الرقعة المترعة بالدم، في حين تأكدتْ صورة الضحيّة بتشوهاتها وإذلالها الملازم عبر العصور المختلفة.

كنتُ أخشى الذهاب إلى بعقوبة، لكنني أضطر أحيانا بدوافع ترتيبات سفري والخلاص من الموت هنا، الموت الذي ربما سأجده أقلّ وطأة في مكان آخر. بعقوبة المنطقة الأكثر عنفا والأكثر تواجدا لمجاميع

غريبة عجيبة لاتعرف سوى لغة الرصاص وأصوات البنادق والقتل السريع.

في سيارة أجرة كُنا ننحشر بها ملتصقين ببعضنا، كنتُ مع إسراء وأمها عندما استوقفتنا سيارة نقل، قفز منها رجلان، بينما بقي آخران يصوبان البنادق نحونا. وقفتْ سيارتنا ونزل السائق وهو يكبّر ويذكر الله بكلماته، بينما الرجال منشغلون بالبحث عن إسراء، سحبها أحدهم بقوّة، فانزلقتْ بيده خارج السيارة كورقة في ريح، صرخنا معا أنا وأمّها متوسلين، داعين لهم محلفين إياهم بالله والنبي ... لكنهم حشرونا في السيارة وأمروا السائق بالذهاب مهددين إياه بالبنادق. ذهبنا مفترقين باتجاهين متعاكسين مع إسراء، كُنّا ننظر لها برؤوس ملتوية وهي تصرخ دون أن نسمعها.. ذهبتْ إسراء، ولم يبق منها سوى تلك الصورة في زجاجة السيارة الخلفية وهي تصرخ بوجه ملؤه رعب، كانتْ عيناها أكثر سعة من سماء، سماء تمطر دماً وظلما. نشاركها ذلك، ونحن نصرخ بألم لايشعر به سوانا.

لم يمض وقت طويل حتى جاءنا الخبر، حيث ذهبتْ أمّها بصحبة بعض أفراد الأمن ليجدوها مرميّة على الرصيف برأس مثقوب من الخلف، وكان من الصعب جلب جثتها، لأن القناصين يطلقون الرصاص على كلّ من يحاول سحبها من مكانها.

تمّ دفن إسراء بعد عناء ومخاطر.

كانتْ حادثة قتلها من أشدّ ما شهدتُ في حياتي، هي لحظات أصعب عليّ من سحب روحي من جسدي أثناء التعذيب في

السجن، وأقسى بكثير من كلّ ما سيأتي من أحداث لاحقة في هذه الحياة المرّة التي نتمسّك بها دون معنى في بلدنا العظيم وبين شعبنا العظيم شعب الحضارات والتواريخ والمجد.

ماالذي حلّ بنا؟

وماالذي جعل الناس بهذه الهيئة الـ (زامبوية) الدموية المقرفة؟

بالنسبة لي، وبعد موت أمّي، صارتْ الحياة دون رب، وأصبح الناس لايرحمون ولم أجد إطلاقا من يذكر أو يذكّر بوجود الرب الذي أعرفه، الرب الذي يلفّنا بردائه الكوني ويحضننا كأطفال خارجين من روضة مليئة بالبراءة. صار الله علامة للقتل وكلمة يطلقها القاتل والقتيل، التبس المشهد واختفى الله.

ذهبتْ أمّي وتركتني... (كحصان جريح في مدخل الصحراء)[2]

تطاردني كوابيس كثيرة، أُضيف لها كابوس جديد قويّ اسمه إسراء.

تأتيني في أوقات كثيرة وتطلب منّي أن أشاركها ألم اختراق الرصاصة من أسفل الرأس، تصرخ باسمي وتقول بصوت ملؤه دم: عمّة، عمّة.. فأشهقُ بأسماء الله، وأستغيث بأمي.. أصرخ، أصرخ.

لكنني أفزّ مذعورة وأنا أتذكّر أن أمّي ماتتْ!.

لكن ماذا عن الله؟

---

[2]مقطع لـ محمّد الماغوط.

(كابوس لا آخر له)

في الليل البهيم المشبّع بأصوات ثقيلة، امتدّتْ الأذرع الخشنة، رأيتهم وتذكّرتُ.. سحبوني من فراشي الدافئ، جرجروني في الممرّات، وصارتْ أصواتهم حِبالاً تلتفّ على جسدي، جسدي الذي أخذ يرتعد ويتخاذل. عادتْ الكلمات تتردّد وترسم نفسها على شفاههم الغليظة البارزة من خلال شَعر خشن يغطّي أفواههم الداكنة التي تفوح منها روائح التبغ وعفن الكلام القبيح ....

ها أنا أعود مجدّدا للسجن بين جموع الضبّاط والحرس وقوادي نظام الحزب وقياداته الحكيمة.

لاقدرة لي على النطق أو الصراخ أو الابتهال أو تحريك أطرافي، كانوا يسحبونني في ممّرات معتمة ذات رائحة مُرعبة، كأنني محشورة في مقبرة جماعية تعود لسنة (١٩٩٠) وماتلاها. رأيتهم الآن بشكل واضح وأنا أضغط الزر على الجزء العامل من ذاكرتي، رأيتُ أشكالهم ومرقتْ أمامي صورٌ واضحة لهم وهم يضربونني بالسياط والأيدي والكلام القبيح، أراهم الآن وهم يتناوبون على جسدي المنهك في لحظات هياجهم ونباحهم وعوائهم وخوارهم المتواصل وساديتهم المتأصّلة لجذور عميقة مع الشياطين والأبالسة في قعر بعيد غائر في انعدام الرحمة.

كيفَ وصلو ا اليّ؟

ومَن جاء بهم؟

ألم يسقط التمثال وتنتهي أسطورة القائد؟

ربما لم يحدث ذلك!. إذن أنا مازلتُ في السجن، وما جرى من تغيرات لم تكن حقيقة، نعم أنا مازلت في السجن ومخيلتي المريضة تحاول أن تصنع لي أملاً يجعلني أقاوم العذاب والإهانات والاغتصاب كي أستمر بهذه الحياة التي أضحتْ حكاية كتبتْها الشياطين وهرب من سطورها اسم الرب الذي نحلم برحمته.

كانتْ الجموع هذه المرّة مختلفة، لقد كثرتْ الأعداد وتعدّدتْ الأشكال. ثمة أجساد تنبثق من شقوق الأرض على هيئة نساء يشبهنني، نساء بأجساد بضّة منتصبة تملؤها الجروح والكدمات، تُعلّق حينا بحبال وهمية مربوطة إلى السماء، وتُنزّل حينا لتواجه قضبان التعذيب والاغتصاب، نساء تتدلّى بأجساد عارية، بينما هم يتجمهورن محتفلين نازعين عنهم ملابسهم الزيتونية ونياشينهم وأوسمتهم ويرقصون رقصة مخيفة، تتّضح من خلالها تفاصيل أجسادهم التي تخفي الكثير من جثث الضحايا وصراخ استغاثاتهم الأخيرة.

لم يعد بوسعي تمييز مايحدث، فهُم تكدّسوا وكأنهم كائن واحد ينتصب ماسكا قضيبه الداكن، قضيب يشبه أداة التعذيب والقتل والاغتصاب.

أشاهدُ النساء يبكين بحرقة وتخرج من أفواههن أسماء الله متحوّلةً إلى بالونات تتلوّن بألوان تتغيّر حسب مايأتون به من حركة أو صوت أو لعنة. أشاهد وأصرخ:

هولاء، هولاء، عادوا، رجعوا، يا الله أنقذنا، وتردد معي بقية النساء، لكن أصواتنا تتراجع وتسقط تحت دربكة الأحذية وعواء الأفواه التي تفوح بروائح الكلام البذىء ...

صوت يأتي من بعيد:

النجاة في الهروب

ثمة أبواب قريبة

أبواب تحتاج لكلمة وخطوة

أبواب لها أن تُغيّر رائحة هذا المكان

أبواب قريبة

أبواب قريبة

صرختُ بصوتٍ مشنوق:

كيف لي أن أهرب، وأنتَ ترى أيها الرب أنهم يربطون ساقيّ إلى حافتي سرير غرفة الضابط الخفر؟

كيف لي أن أتحرّك وهم يضعون ثقَلهم على جسدي الواهن ويشخرون فوقي؟

لقد تحوّلتُ إلى أقذر من قطعة السيراميك التي وضعوها لتكن وعاءً لتغوطهم وبولهم وقرف أجسادهم.

خُذ بيدي أيها الصوت

كُن معي هُنا

تعالَ

لِمَ أنتَ خائف؟

أيها الصوت

لاتكن جبانا

انزل معي على هذه الأرض

وخُذ دورك

لاتتركنا معهم

لاتتركهم

يعبثون بهذه الأرض

أيها الصوت إذا كنتَ رحيما

فانزل

وخُذ دورك

وإذا كنتَ شيطانا

فانزل

وخُذ دورك ...

لاتترك الفوضى - التي تراقبها من برجك البعيد - تنمو هكذا

عُدْ كما عرفناك

كُن كما أنتَ

كما رسمتْكَ أمّي بصلاتها

وكما ينبغي لك أن تبدو..

تقدّم سيّدهم الكبير وكانتْ له أذرع كثيرة وطويلة، يصفعني بواحدة ويرفعني بالأخرى ويدخن بالثالثة، بينما يصافح رجلا يرتدي الزي الأفغاني (الإسلامي) باليد الرابعة. رأيته باياد كثيرة يفعل بها مايشاء من ألعاب عنيفة وحركات بهلوانية تجعل الرجال العراة يعانقون الملتحين الملفوفين بدشاديش قصيرة ناصعة تُظهر سراويلهم الداخلية التي تلامس الأرض، كانوا يتعانقون ويقبّلون بعضهم بطريقة مُريبة ومقرفة. هولاء الذين خلعوا عنهم البدلة الزيتونية ودخلوا في دشداشة الملتحي، لقد اختلطتْ الألوان ولم أعد أشعر بقدرة على التمييز بينهم.

صارتْ الأرض تهتزّ بنا والسقوف تتموّج فوق رؤوسنا، وهُم غير مكترثين لما يحدث، هُم يفكّرون بأصوات عالية، فتعمّ الأصوات المفزعة والروائح العطنة والظلام. صراخ كثير وأشباح قذرة تتراقص في المشهد الضبابيّ، وانا أعوي وأصرخ وأطلب النجدة من الله، من أمّي، لكن لا أحد يوقظني..لقد تذكّرتُ الآن أن كوابيسي لاتنتهي أبدا بعد رحيل أمي .... سأستيقظ، نعم لابد لي من الاستيقاظ ومغادرة الكوابيس في العراق.

(سفرة أولى)

الخيال عزاؤنا الوحيد وطبابتنا المتاحة، وهو الفسحة السهلة التي نتحرّك بها ونلجأ إليها قبل كلّ السبل والخيارات البديلة. أتخيّلُ وأحلمُ لأصدّ مايحيطني من مفاجآت وأردع بشكل نسبي أضرار الأقدار وما تخبؤه الأيام من جروح قادمة. أسير في غابات الشوك العراقية حافيةً ولا أجد ما أسند عليه جسدي عند التعب. ليس لي من شيء سوى ذاكرة مليئة بالرعب والكوابيس والخوف، وأحاول جهدي أن أوقد مخيلتي بضوء آخر يسعفني من رغبتي الجامحة بالفناء. حاصرتْني الأيام وأخذتْ منّي كلّ شيء ولم يبق لي سوى أمل وحيد، هو المغادرة، وعكسها الهلاك لامحال. أتناغم مع مخيلتي بأمل ووهم ومحاولات تكاد تكون ميّتة، أملي أنني سأرحل خارج المأزق وأجول مدنا وألتقي أناسا من نوع آخر، علّهم يشبهون أمّي بشيء، وعلّهم يرسمون لابنتي طريقا أفضل مما كان لي ...

تحقّقتْ سفرتي الأولى، وكانتْ وجهتي دمشق، صار حلمي يدفع عنّي بعض اليأس ويسحبني بهدوء ودون وعي. رغم أن دواعي السفرة كانتْ عبارة عن جرح جديد، جرح عاد به محمد بعد غيبة سنوات طويلة. تجربة ستكون مريرة، إلا أنني سأخوض في تفاصيلها كمن يجرع السم لالشيء، فقط لأنقذ ابنتي وأهرب بنفسي مما وصلتْ إليه الأمور

في العراق. سأخوض أيما تجربة تحمل أبسط الآمال في تحقيق الهروب من جحيم بغداد الذي فاق التصوّر.

ونحن في طريقنا - رغم الخوف لخطورة الطريق - كنتُ أرسم لنفسي مكانا آمنا هو بيت صغير تنمو به ابنتي أمام عينيّ وأجعلها ترسم حياتها بشكل يعوّض ماحُرِمتُ منه أنا في حياتي المليئة بالأسى والعذاب.

رغم مشاهد الرعب التي تبدو لنا بين حين وآخر، أحاول أن أتماسك وأساير مخيلتي التي أقودها بتحكّم وسيطرة مُفتَعلين. مشاهد وصور لايمكن رؤيتها إلا في الأفلام البعيدة الموغلة في أعماق المخيلة المستحيلة. هياكل لعجلات متآكلة، آثار حرائق هائلة لبنايات متداعية كأنها أجساد كائنات عملاقة منقرضة، جماعات لايمكن تمّييز هويتها من حيث المظهر والملبس ونوعية الأسلحة وطريقة الكلام، عوارض وحواجز ونقاط تفتيش لاعلاقة لها بأصول الأمن أو وسائل الأمان المتعارف عليها في مؤسسات الدول، حُفر وشقوق في الشوارع وعوائق كثيرة على شكل عوارض وصبّات وبراميل ورجال وهميين في سيطرات وهمية، قلق يعصف مع الريح الجرداء والرمال التي هربتْ من صحراء تحيط بالعراق وتحاول الانقضاض على داخله المظلم.

تبدّل رجال البعث بزيّهم العسكري الأنيق المدجّج بالأسلحة وأجهزة الاتصال والتنصّت، وشواربهم التي يتفاخرون بكثافتها، وألسنتهم التي استدارتْ بلكنة تكريتية تتفاخر بتسلطها على رقاب الرعيّة، تبدّل كلّ هذا بخليط عجيب من أشكال لايمكنك أن تتخيل لأي كوكب

ينتمون ومن أي عالم جاءوا. جماعات من أشباح بعيون تقدح شررا ورعبا..

تعرّج الطريق بنا، وأصبحتْ أمي تتلو الأدعية. خرجنا عن الطريق الرئيسي لأنه مقطوع وصار لزاما على السائق أن يستمر على طرق ترابية موغلة في قحط الصحراء المرعب. مررنا ببيوت طينية مهجورة، ترفّ على أطلالها رايات مطرّزة بطلاسم وتعاويذ كأنها من سحر الشياطين. خرجنا منها لقرى أخرى يتحلّق حولها رجال مدجّجون بالسلاح يشبهون إلى حدّ ما حرّاس بوابات جهنم - كما رسمها لي مدرّس التربية الدينية في مرحلة الدراسة المتوسطة -.

يوقفوننا بين حين وآخر وننجو بأعجوبة سماوية تهطل علينا من خلال لسان السائق الذي تغيّر فجاة وصار يحكي بطريقة (أهل الغربية). لا أتذكّر بالضبط كيف اجتزنا كلّ تلك المخاطر وكيف حللنا بأرض دمشق، إنها واحدة من المعجزات التي تحقّقتْ بوجود امرأة صالحة هي أمي.

تلك السفرة التي هي في الحقيقة مَكيدة جديدة وفَخ من نوع شيطاني محترف كتب سيناريوهاته (محمد) زوجي الخائن الذي ظهر فجأة وأقنع الجميع من أهلي بأنه سيصلح كلّ شيء وأن ماقام به من فعل فقط ليخلّص نفسه من الموت الذي كان سيحصل له من قبل النظام الساقط، وأنه كان يعيش بألم كبير لما تسببه للجميع بمن فيهم أنا زوجته الحبيبة كما كان يقول. كانتْ تبريراته غير مقنعة بالنسبة لي، خصوصا وأنا أعرفه بشكل جيد وأعرف أكاذيبه وسبله الملتوية في

استخلاص مصالحه والتضحية بأرواح الآخرين لأجل رغباته. لكنني وافقتْ ليس رغبة بما تطلبه منّي العائلة، وإنما هي محاولة منّي أن أرسم لابنتي مستقبلا أفضل في مكان آخر غير العراق.

لا أريد أن أركّز كثيرا على لقائي الأول بـ (مُحَمّد)، فهي لحظة غريبة جدا بالنسبة لي. رأيته شخصا آخر، كأنني لم ألتقه من قبل، حاولتُ التمعن به لكي أتذكّره، لكنني أفشل في المحاولة. وبلحظة خاطفة رأيت بوجهه كلّ الذي حصل لي من ظلم وخيانات وغدر. رأيته، هو، الضابط المغرور اللعوب الذي يجري بدمه سمّ الخيانة والحقارة واللؤم. رأيتُ الرجل الشرقي الموتور الملعون الخارج عن طاعة الله والمجتمع والإنسانية، الرجل الذي جعل منّي فطيسة تنهش بها الوحوش والكواسر وتلهو بها الأقدار الظالمة. لم أنفعل كثيرا حينها وحاولتُ جهدي أن أبدو بشكل طبيعي، لكن صور المخيلة التي تعود بي إلى لحظات السجن والتعذيب والاعتداء والذبح اليومي تُجفلني وتضع نصب قلبي وعيوني وجوه الجلادين وملامحهم الغليظة التي تنهال عليّ بهذه اللحظة التي أواجه بها هذا الكائن المنحطّ، الفاقد لأبسط ذرّة من الأخلاق والشرف والكرامة..

اجتمعنا في بيت أجّرناه في دمشق. كنتُ غريبة عنه روحا وجسدا وشرعا، لا أطيق الاقتراب منه.. كان بعض أفراد عائلتي معي بمن فيهم أمّي. لم تقبل أمّي بأن يلتقيني، (فهو رجل غريب وإذا أراد لقاءك، عليه بإجراء عقد شرعي، هذا ما يقوله الشرع بعد غياب كلّ

هذه السنين) قالتْ أمي هذا وهي تنظر إليّ وأنا أغوص في دموع لا أعرف لها مبررا.

كلّما أنظر إليه أرى به تاريخًا من عذاب ووجوه الحرس الذي كانوا يتناوبون على جسدي وروحي بكلّ البشاعة والإجرام، فكيف سأكون معه يارب؟

الذي يشغلني الآن شيء واحد، هو أن أجد منفذا للخروج بشكل نهائي من العراق، وليس من طريق أمامي سوى أن أكمل اللعبة مع هذا النذل الذي يلعب من طرفه لعبة جديدة غامضة.

مرّتْ بعض الأيام وأنا أنتظر أن يقوم (مُحَمَّد) بإجراءات لمّ الشمل لي وابنتي - هذا ماوعدنا به -، وهذا ماجعلني أنتظر إتمام هذه المهمّة التي أصبحتْ أملي الأول، لكنني كلما نظرتُ بعينيه وهو يتناول موضوع لمّ الشمل وسفرنا معه أتذكّر أكاذيبه التي يفضحها هروب عينيه من المواجهة.

بقينا فترة أسابيع قليلة وكان (مُحَمَّد) يخرج من الصباح ولا يعود إلا في الليل وهو يقوم بإتمام الأوراق لكي يتم موضوع السفر والحصول على الفيزا لنا.

كان (مُحَمَّد) قد عاد إلى العراق بعد الـ (٢٠٠٣) في الأشهر الأولى ليستثمر تأريخه المشرّف كبطل قومي تتشرّف به الحكومة الجديدة وكمعارض عتيد لنظام صدام، ليحصل على حقوق السجناء والمنفيين السياسيين وحقوق أخرى لها أسماء مختلفة وتنطوي على مكرمات مالية وسكنية وامتيازات لاحصر لها.

كان يتنقّل بين بيته الذي استقرّ به في السويد وبين بغداد التي فتحتْ له خزائنها ومكرماتها السخيّة، فهو الآن عراقي مناضل ومضطهد ويستحق كلّ مايريد ويبتغي من الحكومات الجديدة التي تعاقبتْ في العراق الديمقراطي الجديد. اتصل بنا بشكل مُفاجئ، وكان صوته قد هيّج الكثير من الجروح التي أوشكتْ على الانطفاء، كانتْ أمي حينها بصحة جيدة، وأشارتْ لي أن أعود إليه فقط للخلاص مما نحن به من مأزق وخطر في أجواء العراق الملتهبة.. (فرصة لاستثمار خروجك مع ابنتك، لاتدعى الفرصة تمرّ، أعرف أنه نذل وقذر، لكن عليك بإتقان اللعبة هذه المرّة) قالتْ أمي هذا وهي تكتم دموعها وغصّة عميقة في بلعومها.

انتهتْ سفرتنا. وعاد الطيّار العراقي إلى بلده السويد، وعدنا نحن إلى بغداد على أمل الحصول على الفيزا والالتحاق به في الأشهر القليلة القادمة.

(طعنات في الصميم)

مرّتْ الأشهر وكأنها أعوام طويلة في بغداد المنكوبة. نقابل الجدران ونحاكي أنفسنا ونترحّم على الأموات والأحياء. تعود بي الذاكرة إلى أيام السجن وما تلقيته من أمور لم أكن أتوقعها في الحياة، فتزداد عندي الكوابيس والهيستيريا الليلية التي أصبحتْ تتفاقم وتزداد لدرجة الجنون.

اتصلّ (مُحَمّد) ليخبرنا بأنه لم يستطع إتمام معاملة لمّ الشمل لنا، فبعد جهد ومتابعة استطاع أن يحصل على فيزا فقط لـ (هيدو) ابنتي، أما أنا، فيقول إنهم لم يوافقوا عليّ الآن، لكنهم سيمنحونني الفيزا بعد وصول البنت..

لم أقتنع بما قال، وأعرف انها لعبة جديدة من الأعيبه. أبلغته بأنني لا أسمح لأحد أن يأخذ ابنتي ولا يفرّقني عنها شيء، لكنه كان يتكلّم بلغة المنتصر وكأنه يعرف بأنني سأرضخ للأمر، كونه يعرف الوضع في العراق ويعرف أيضا مدى خوفي وحرصي على ابنتي ورغبتي في إنقاذها من التفجيرات والمفخخات والقتل العلني في شوارع بغداد ومدن العراق قاطبة..

بعد مداولات ومكالمات معه وتطمينات منه وتأكيد بأنني سألحق بهما، وبعد نقاشات مع أهلي، اتفقنا أن ندع (هيدو) تذهب مع والدها.

ذهبتْ ابنتي إلى السويد، وأخذتْ منّي الجزء الكبير من قلبي وروحي. بعدها بأشهر ماتتْ أمّي بحسرة وهي تنظر اليّ بعينين ذابلتين، حينها لم يعُد لي من شيء في بغداد ولا العراق ولا أي جزء من هذه الأرض القاحلة.

تعاقبتْ علينا المصائب والويلات، وصارتْ الأحداث كالزوابع الهائجة، تعبث بنا دون هَدأة أو فرصة لجرّ النَفس.

جاءنا خبر اختطاف (حسام) وهو شمعة العائلة ابن أختي الكبيرة، حسام الجميل الخدوم الطيّب الذي يستطيع بكلمات بسيطة وابتسامة أن يغير مزاج البيت والعائلة. حسام مُختطف الآن وثمة مَن يطلب فدية عنه أو يُقتل..

أصابنا الذهول والفزع وصرنا نتشبّث بكل مانستطيع من أقارب ومعارف لكي يتوسطوا لإنقاذه.

يوم طويل من العذاب عصف بالبيت وأخذ منّي ماتبقى من أعصاب وعقل. عاد لنا (حسام) في آخر الليل وهو يحمل قصصا عن الرعب والهلاك الذي شاهده في سجون الميليشيات السريّة والتي تضمّ الآلاف من الناس بين ميّت وحي. لم يستطع (حسام) تصوير المشاهد بشكل جيد في اليوم الأول، لقد كان يعيش الصدمة والخوف لدرجة أنه لم يستطع النوم، وكنّا نحيطه ونحاول العودة به لما كان عليه.

(لقد كانوا يقتلون الناس دون ذنب وبدم بارد، شباب بعمر الورد، لم يرتكبوا ذنبا، يستغيثون ويطلبون الرحمة، لكن دون جدوى، كانتْ الرصاصة تنطلق بسهولة لتلقي أحدهم ميّتا، وببساطة متناهية تُسحب الجثة خارجا ويردّد أحدهم: خذوه إلى المزبلة. (قتل على الاسم والهوية والطائفة). يقولها (حسام) وهو يبكي كالطفل، فيما نصبّره ونرجوه أن يكفّ عن الكلام.

استعدنا (حسام) بمبلغ جمعناه بصعوبة، دفعناه لشيوخ ملتحين، يرفعون شعار الله أكبر، تحيطهم هالة من نور الإيمان ورجال غِلاظ ملفوفين بالعتاد والرغبة بالقتل لأجل العقيدة.

لم تعُد مِن قيمة للبشر، ولم يعُد لي ما أخشاه، لذا سأفعل المستحيل لألحق بـ (هيدو) التي أخذتْ قلبي وروحي بسفرها.ورحيل أمّي التي ذهبتْ بحسرة وهي ترانا ننهار أمام الأحداث وأمام مافعله (مُحَمّد) بي وبالعائلة. طعنات (مُحَمّد) تتكرّر وتزداد قسوة ونذالة وتسدّ عليّ الطريق وتحاول طمر نوافذ الأمل في طريقي.

طلبتْ منه أن يعمل لمّ الشمل لي مع ابنتي، وبعد توسل ومكالمات وافق. حينها قرّرتْ السفر إلى الإمارات، إلى أخي الذي يسكن هناك مع عائلته. سأقدّم أوراقي إلى السفارة السويدية في الإمارات، لعلها تنجح هذه المرّة وأصل إلى (هيدو).

بقيتْ عدّة أسابيع في الإمارات، كانتْ بالنسبة لي كالحلم، بنايات شاهقة وتطوّر مذهل على كلّ المستويات الخدمية والأمنية. بلد

عجيب، لاترى به أي دوريّة أو شرطي أو سيطرة، لكنهم ينعمون بأمان مطلق ويتحركون بحريّة.

تطوف شوارع الإمارات جماهير حاشدة من الرجال السمر المنسوبين للهند وباكستان وغيرها من الدول. بلد تديره أيد عاملة مستوردة من أنحاء العالم وتحميه وتحافظ على أمنه، قوّة لاتظهر في الشارع ولايمكن رؤيتها على السطح. نظافة وتكنلوجيا ولغات مختلفة، لغات مُستحدثة، حيث يكلّمك الهندي بلغة نصفها عربي ونصفها إنجليزي مع هزّة رأس هندية تجعل اللغة أكثر قربا لمسرح غرائبي عجيب.

أبلغوني أنهم سيتّصلون بي خلال أسابيع لإبلاغي القرار، حينها قرّرتُ العودة إلى العراق لانتظار النتيجة حيث ستكون عبر الهاتف بيني وبين السفارة السويدية.

عُدتُ إلى بغداد وأنا على نار بانتظار نتيجة معاملتي التي كانتْ حلمي في المغادرة ورؤية ابنتي. كانتْ بغداد قد تحوّلتْ بفعل الشياطين إلى فلم رعب متواصل، لايهدأ أبطاله ولايستكين مشاهدوه. دم يجري على مرّ الأيام وجثث تملأ المزابل والساحات النائية ومدينة الطب العدلي. جثث مجردة من الهوية. ناس يُقتلون بسبب هويتهم، بعدها تُسرق أوراقهم، فيموتون دون تلك الهوية التي ماتوا لأجلها. جُثث مجهولة الهوية...

تعدّتْ القصص التي تُروى - في مخيلتها - كلّ التصوّر وصرنا نصدّق حتى الأساطير التي سجّلها العراقيون في فن القتل والتناحر فيما بينهم بسبب الاختلافات في طريقة السجود والركوع

وطريقة الوضوء والبسملة أثناء غسل الجنابة. انعدمتْ المروءة وظهرتْ أذرع أخطبوطية تعود لدول وقارات لم نسمع عنها من قبل، وصارتْ الوجوه الغريبة متسيّدة على شوارعنا وعقول شبابنا الذين فقدوا صوابهم من هذه الزوابع المتتالية على هذا البلد المبتلى.

لم يأخذ الأمر كثيرا من الوقت حتى جاءني الرفض من السفارة السويدية بحجّة أن الأب هو الوصي على البنت وهو لايريد طليقته التي لاتتناسب مع النظام السويدي، فهو متزوج الآن من امرأة أخرى وله منها أطفال ولايجوز تعدّد الزوجات في السويد.

(الشام وقسوة الأيام)

نحن البشر، أمرنا عجيب، دائما نعتقد بأن الضفة الأخرى هي مكان الأحلام.

ضفة بعيدة لم نرها، وكلّ الذي نعرفه عنها أنها غامضة وأنها مكان نجهله، لكننا نتخيّلها بما يتلاءم مع أحلامنا وما نطمح اليه في رغباتنا وآمالنا. كنتُ أسمع عن الشام ودمشق، وكانتْ بالنسبة لي محطّة أقفز من خلالها إلى السويد، لكنها الآن تتحوّل إلى الحلم، بعد أن خيّب (مُحَمَّد) كلّ طموحاتي وأحلامي وقطع عليّ الأمل في رؤية السويد. حيث قرّرتْ أن أمكث هناك في دمشق العظيمة إلى أن يتقرّر المجهول القادم في حياتي.

جهّزتُ نفسي وجمعتُ كلّ ما أستطيعه من مال ومصوغات ذهبية وأقنعتُ أختي بالذهاب بسفرة ترفيهية إلى دمشق. وافقتْ أختي بعد أن أخبرتها بأني سأدفع كلّ المصاريف وأتكفّل بكلّ الترتيبات. ذهبنا عن طريق البرّ وبصحبتنا ابنتها، وكانتْ مجازفة مُريعة،حيث نسبة نجاح الوصول إلى الشام قليلة جدا قياسا للأحداث المرعبة التي تحدث في المساحات الصحراوية الشاسعة الممتدّة بين بغداد ودمشق.

كنتُ أرتدي الحجاب (النقاب) وذلك لخوفي من متابعة الجماعات المسلّحة التي أرسلتْ لي تهديدات عدّة مرّات، لتحذّرني من

الخروج أو محاولة السفر والالتحاق بزوجي الخائن المطلوب من قبل هذه الجماعات الإسلامية التي كانتْ جماعات بعثية من قبل، هذه الجماعات التي دمّرتْ حياتي وكانتْ السبب الأول بأن أوافق على سفر ابنتي خوفا عليها من تلك التهديدات المتواصلة. الشيء العجيب أننا في المناطق السنيّة مازلنا نخضع لنفس الضغوط البعثية التي كانتْ تُمارس علينا من قبل النظام الساقط، الفرق البسيط بينهما هو أنهم خلعوا الزيتوني وارتدوا الملابس التي توحي للجماعات الإسلامية. بقيتْ معلوماتنا لديهم وصار الضغط عليّ أنا شخصيا أكثر فعلا و تأثيرا.

كانتْ الرحلة إلى الشام أكبر بكثير من كابوس، وكنّا سنموت بسهولة لولا رحمة الله ومساعدة الأقدار. هي بالضبط معركة محتدمة بيننا وبين كلّ مايحيطنا من أشياء، فلا نستطيع أن نثق بأي كائن يتحرك حولنا في الطريق، ولا نأمن لأي عجلة تقترب من سيارتنا، ولا نركن بطمأنينة لأي جِدار قريب أو عارض اصطناعي مُروري أو صبّة كونكريتية مهملة في حيّز قريب، أو أي حيوان سائب فقد صوابه لِما يرى من غرائبية من حوله. هي معركة مع الهواء المسمّم والضوء الملوّث والكلام البذيء الخارج من أفواه الـ (زامبي) الذين شغلوا مساحة الأرض بين العراق والدول المجاورة.

في النقطة الحدودية العراقية التي هي الباب الأوحد لي في الخلاص، حدث الأمر الذي حذّرني منه البعض، وهو أنهم لايسمحون لي بالمغادرة دون مُحرم، وحدث أن استدعاني الضابط ليستجوبني. طلب منّي رفع النقاب، فعلتُ، واجهته بابتسامة ودار بيننا:

هو: ليش طالعة بدون محرم؟

أنا: سيدي أنا وحيدة أهلي وأبي مات منذ زمن، وليس لديّ سوى أختي وهي معي الآن.

هو: ماذا عن زوجك؟

أنا: سيدي، زوجي ينتظرني في الشام.

هو: لماذا لايأتي زوجك ويأخذك بنفسه.

أنا: سيدي زوجي مُعاق وهو في المشفى، تعرّض لحادث وإصابته خطيرة.

هو: لكن أنتِ بنت حلوة (تحرّك شاربه ليذكّرني بأشياء أكرهها) والقانون كما تعرفين لايجيز خروجك بهذه الطريقة.

أنا: سيدي الله يخليك، أنتَ رجل شهم وعراقي طيّب القلب، وأنا سأذهب لأكون مع زوجي المصاب، وأعود به بعد شفائه وسأكون ممتنّة لك ولا أنسى فضلك (مع ابتسامة رقيقة).

هو: تعلمين هذا ممنوع، ولايمكنني تمريرك خارج الحدود، لكنني سأساعدك، وسأنتظر عودتك، ونتفاهم.

أنا: سوف يكون فضلك هذا على بالي مدى العمر سيدي العزيز، وعند عودتي سأراك ونتكلّم.

هو: ي، إذن، هذا رقم هاتفي، خابريني قبل مجيئك لأستقبلك وأسهّل أمرك.

أنا: شكرا، الله يوفقك ونراك على خير.

تمّ الحوار لنهايته التي أتقنتُ أداءها ومرّتْ على الضابط الشاب الذي بدا وكأنه انتصر في معركة.

عبرنا الحدود بعد انتظار طويل في ظلام يدعو للصراخ، لكننا صامتون وكلٌّ يصرخ بداخله لشيء ما ينبض أو يحتضر في أعماقه ... المدخل السوري أكثر إضاءة. هرعنا نتسابق إلى المراحيض، لأننا في الجانب العراقي كانتْ التواليتات عبارة عن أكوام من قذارة وجيَف قاتلة بهياكل كونكريتية هي عبارة عن لافتات عار في وجه المسؤول العراقي، خالية من الماء ومن أي سبب يجعلها صالحة للاستخدام البشري.

دخلتُ إلى أحد الحمامات، وخلعت الحجاب والجبّة، لأظهر بالجنز مع قميص ملوّن، وأطلقت شعري الطويل الاشقر. نظرت لنفسي في المرآة لاتأكد أنني جئتُ معي فعلا.

في الشبّاك السوري، كان الضابط يتفحّص الوجوه، كأنه حصل على جائزة وهو ينظر في أوراقي. ناداني لأدخل إلى الغرفة. أنا الوحيدة من بين الأشباح الشاخصة، مما أثار همسا بين العراقيين الجاهزين للتعليق والشك.

قال بصوت مشرق:

* أهلا استريحي، هون.
* شكرا، تسلم أستاذ.
* شو سبب زيارتك؟
* والله أستاذ تغيير جو، ومشروع سفر إلى أوربا.

* ها.. ماشاء الله، ليه مامعاك مُحرم، شو ماتعرفين القوانين؟

* لا أستاذ أعرف القوانين، بس أنا ماعندي غير زوجي وهو ينتظرني في دمشق.

* آسف والله، ما أقدر أمررك، هذا شيء صعب وضد القانون.

* أستاذ أنت الخير والبركة وكله في إيدك، وأنا مارراح أقصر معاك (لوّحتُ له ببعض الدولارات التي بانتْ بين طيّات الجواز) وأنا في الخدمة بأي شي تؤمر فيه.

حينها ابتسم واضعا عينيه في اللون الأخضر النابت وسط الأوراق الذي بدا مُغريا:

* أنا راح ساعدك، بس خلّي في بالك أنها مسؤولية ليست سهلة، وأوراقك لازم تمرّ على الضابط الكبير، وهذا يحتاج شيء هو أيضا، ها!

* لاتحمل الهم، كلووو سهل.

أخرجتُ ورقة خضراء أخرى تحمل صورة رئيس أمريكي قديم ورقم مائة بخط كبير، وضعتها بين الأوراق وانتهى الأمر ... كل ماقيل لي عما سيحدث معي في نقطتي التفتيش، حصل بدّقة وبتمام التفصيل.

سارتْ بنا المركبة المليئة برؤوس عراقية مليئة بالحيرة والترقّب، وصارتْ عيونهم تنظرني بنظرة غريبة بعد أن خلعتْ النقاب والزي الإسلامي الأسود، وارتديتُ ملابسي العصرية. صار الهمس مقصودا وواضحا، عبارات استهزاء وتسخيف، وكلام سوقي يردده بعض الجالسين قريبا منّي، كلام يتناول استهجانهم وسخافاتهم بسبب تغيير

ملابسي وظهوري بهيئة عصرية أحبّها، فصرختُ بهم بصوت غاضب ونلتُ منهم بالشتائم والتحقير، لم يجبني أحد، وساد صمتٌ طويل انتهى بنومة الجميع بمن فيهم أنا.

راودتني بعض الكوابيس أثناء غفوتي في الحافلة.

وجوه لرجالٍ بملامح قديمة قاسية، الوجوه التي أتعبتْ مخيلتي وجعلتني لا أستطيع النوم بشكل طبيعي.

أكفّهم القويّة وأذرعهم الملفوفة بشَعرٍ كثيف كأنه تلك الأسلاك الشائكة المغروسة على حافات الجدران والبوابات في دوائر الأمن وسجون الوطن. مجاميع لجثث تتراكض بفزع، تلحقها أذرع تحملُ سياطا. صراخ وعويل ورصاص يتطاير في الأجواء، وأنا جثّة ممزّقة تحملها الأكفُّ وتركض بها في ظلام يتفاقم في دهاليز لاتنتهي ...

استيقظتْ على أثر الاصوات وحركة الركّاب. نزلنا حاملين بعض الأمتعة والهدايا البسيطة، كانتْ أختي وابنتها مُبتهجتين لرؤية دمشق، كلّ ما تعرفانه أنها سفرة لعدّة أسابيع أو ربما أيام ونعود، لكنني قرّرتْ أنها السفرة الأخيرة لي حتى الموت.

كانت في استقبالنا إحدى القريبات من العائلة، استضافتنا لعدّة أيام إلى أن أجّرنا شقّة صغيرة في حي شعبي جميل، على الطريقة السورية،،

تدبّ فيه حركة تُشبه ما كنتُ أراه في الأفلام المصرية القديمة، حي هادئ وآمن، تشعّ منه روائح الطبيخ الشامي والخبز العراقي، حيث انتشرتْ مخابز عراقية كثيرة في الشام بسبب وجود العراقيين بكثرة،

وتزايد أعدادهم خاصّة بعد عام ٢٠٠٦. أعجبتني دمشق بطيبة ناسها وبساطة الحياة بها، لكنني مازلت أحمل أورام الماضي بذاكرتي المثقلة بتاريخ طويل من الجري في ظلام الأيام العراقية المترعة بالأحقاد والوشايات والسجون والقلق والشكوك والتآمر والمصائر المجهولة، تفاقمتْ كلّ هذه العوامل بداخلي وكوّنتْ حاجزا يجعلني أخشى الآخر ولا أطمئن لأحد بسهولة، وغالبا ماتجتمع بي هذه المسببات في الليل وتتحوّل إلى كوابيس تجرّني من نومتي لصراخ يقلق مَن حولي ويوقظني وأنا في حالة خوف وهلع وغضب.

مرّتْ الأيام سريعة، كُنّا خلالها نقوم بالتجوال والاطلاع على معالم المدينة، وكنتُ أمرّن نفسي على التعامل مع السوريين الذين وجدتُ بهم الإنسانية المفرطة والتقدير الكبير لي في أيما مكان أزوره. وكانتْ أختي تذكّرني كلّ يوم بضرورة العودة إلى بغداد، لكنني كنتُ أجعلها تؤجّل الأمر، إلى أن حان الوقت وأبلغتها بأنني لاأعود معها وأنني سأقدّم أوراقي إلى مكتب الأمم المتحدة وأطلب اللجوء لكي ألتحق بابنتي في السويد.

سافرتْ أختي وهي غاضبة منّي وتحذّرني من غضب إخوتي وأفراد عائلتي جميعا، لكنني أبلغتها أن الموضوع يخصّ حياتي أنا، ولاشيء يمنعني أبدا من القتال في سبيل الوصول لهدفي وهو ابنتي التي هي أملي الوحيد في الحياة ولا أظن أن الحياة بدونها ستكون مهمة لي.

قدّمتْ أوراقي إلى مكتب الأمم المتحدّة، وخلال أسابيع تم استدعائي لمقابلة، حيث تمّ قبولي بعد الاطلاع على الملف الذي يحتوي

قصتي بإثباتاتها. تفاعلتْ معي سيدة مسؤولة في المكتب وأعطتني امتيازات لم أكن أعرف عنها، امتيازات تخصّ النساء المعنّفات والمضطهدات اللواتي نجين من السجون والاضطهاد والأحكام الظالمة.

تعرّفتْ على بعض العوائل العراقية والسورية وصرتُ أعرف بعض الناس في السوق المحيطة بشقتي التي أسكنها وحدي الآن. بالرغم من وجودي وحدي في الشقة، لكنني كنتُ أشعر بالأمان وأميل إلى تصديق نفسي بأنني سأصل إلى هدفي مهما كانتْ الصعوبات.

انتبهتُ إلى نفسي لأجد أن المال الذي معي قد نفد، وأنني لاأستطيع تسديد إيجار شقتي خلال الشهر القادم، لذا كان عليّ أن أتدارك الأمر وأسعف حالي من ضياع يقترب.

اتصلتْ بقريبتنا التي استقبلتنا في بداية وصولنا، وطلبتُ منها مساعدتي لحين أن أتصرف في الحصول على مال أو عمل، لأن المبلغ الذي أستلمه من مكتب الأمم المتحدة لايكفي لمصاريفي، خاصة وأن مبلغ إيجار شقتي كبير جدا قياسا لقيمة ما أستلمه من المكتب.

استقبلتني قريبتي مرّة أخرى وبقيتُ معها بحدود الشهر، بعدها سافرتْ قريبتي مع عائلتها وتركتني بعهدة صاحب البيت الذي طلبتْ منه أن يجد لي مكانا أرخص يتناسب وإمكانيتي المادية البسيطة.

صاحب البيت رجل سوري قصير وله كرش مضحك وصلعة تجعله يُشبه بعض الممثلين الكوميديين المصريين من جيل السبعينيات، لكن وجهه غاضب ومنفعل، وهو يحاول دائما تمثيل دور الباشا أو

المعلم الكبير، لكنه يفشل بشكل كبير ولا يستطيع الوصول إلا لممثل من الدرجة العاشرة في مشهد هزيل..

اصطحبني معه إلى السكن الجديد، وأخذ يسهب بمدح العراقيين وطيبتهم وأخلاقهم وجمالهم، وصار يؤكّد على الجمال وخاصة جمال العراقيات - كما يدّعي - وكيف أنه يشعر برغبة عظيمة للزواج من عراقية أصيلة. سرنا مسافة ليست بالقصيرة ومعنا كلّ أغراضي بحقيبتين كبيرتين وحقائب صغيرة وأكياس بلاستك مختلفة الأحجام، وكان الرجل يقوم بدور المساعد الشهم الذي مازلتُ أشكّ بنظراته وحركة شاربه.

وصلنا المكان، وكانتْ شقّة صغيرة مناسبة لوضعي في هذه المرحلة. وضعنا الأغراض في الممرّ، وشكرته على المساعدة منتظرةً منه أن يغادر، لكنه جلس على كرسي يجاور الباب وأخرج سيجارة وقال:

* أريد أن أقول لكِ شيئا.

* تفضل.

* أنتِ بنت حلوة، وطيبة، وعايشة لوحدك، وأنا بخاف عليكِ من الناس، وأعرف ظروفك المادية، وأريد أساعدك.

* أشكرك عمّي، الله كريم غدا تُفرج بإذن الله.

* لا، لا أرجوكِ بلا كلمة عمّي، أنا ماكبير هالقد هههه.

* خلص، أخي الكبير لكان.

* شوفي، أنا أريدك، وراح أعطيك الشقة بدون فلوس، وأعطيك مصروف كل شهر وما أخليك تحتاجين إلى أي أحد، بس خليكِ معي، أنا حبيتك من أول يوم شفتك.

اقترب منّي وصار وجهه يُشبه كثيرا ضباط التحقيق وحرس السجن وطياري القوّة الجويّة العراقية.

فتحتُ الباب وهربتُ خارج الشقّة، وبقيتُ أنتظر أن يمرّ أحد ليساعدني في الخلاص من هذا الموقف المخيف.

خرج وهو يرتعد طالبا منّي إخراج كلّ أغراضي ومغادرة المكان مُردّدا:

روحي، وشوفي كيف راح تندمي لما يضربك الجوع.

قمتُ بإنزال أغراضي إلى الشارع، بقيتُ فترة وأنا أقف مذعورةً عاجزة، فاقدة لأي أمل.

كانتْ بعض سيارات الأجرة تتوقف أمامي، لكنني أرفض الصعود لأنني لا أعرف أين سأذهب!

داهمني شعور عميق بالضياع، وغصّتْ في جوفي عبرة كبيرة جفّفتْ أحشائي وجعلتني أشعر برغبة كبيرة بالموت والخلاص من هذه الرحلة التافهة التي اسمها الحياة. مرقتْ بذهني كلّ تفاصيل حياتي الخائبة بشكل سريع وتناثرتْ أمامي سنوات عمري التي تشظّتْ إلى أيام ولحظات وصارتْ تتطاير مع غبار الطريق الضاج بالسيارات وحركة الأقدام .....كم وحيدة أنا في هذا العالم!

أين أمّي، أينك يا أمّي؟

كيف حصل لي أن أكون هكذا بعيدة عن بيت أمّي؟

أين أهلّي؟؟

كيف فرّقتنا أيها الوقت؟

بيتنا، يابيتنا كيف تبدو الآن؟

انهمرتْ دموعي، وصرتُ أجهش بهستيرية وألم، وكنتُ أحاول إخفاء وجهي عن السابلة الذين يرونني بوضوح. تمالكتُ نفسي واستعدتُ قوتي وأنا أتذكّر وجه ابنتي، أراها بوضوح، فأستعيد إرادتي وأنهض من جديد.

خطرتْ لي فكرة الاتصال بالأخوين (على ومحسن) وهما عراقيان يملكان محلًا للخياطة قرب سكني الأول وكنّا نلقي عليهما التحية الصباحية أحيانا أنا وأختي، وربطتنا بهم صداقة بسيطة، فهما شابان لطيفان مكافحان من بغداد - مدينة الصدر - أحببتهما جدا لبساطتهما وطريقتهما المهذبة بالكلام.

اتصلتُ.. فهرع علي قادما لي بسيارة أجرة بسرعة لم أكن أتوقعها، تحدّث لي بطريقة جميلة، جعلتني أشعر بالأمان وأحسّ بأن لي إخوة يصغرونني بعقد من الزمان وهم رجال ملؤهم شهامة وطيبة وكرم. سكنتُ شقّتهما لعدّة أيام، بينما هما ينامان في محل الخياطة، حتى حصلتُ على مكان مناسب، ساعدوني على دفع جزء من الإيجار وانتقلتُ لمكاني الجديد وأنا أشعر بامتنان كبير لهذين الأخوين اللذين يجعلانني أرسم خارطة أمل جديدة في هذه الحياة.

كان المبلغ الشهري الذي أتقاضاه من الأمم المتحدة لايكفي لتسديد الإيجار والمصاريف الأخرى من طعام ومواصلات وأرصدة

الاتصال.. إلخ ... لذلك كان لابد من العمل، لكن أين وكيف ومع مَن؟

كلّ الذي بقي معي سلسلة ذهبية هي أعزّ ما أملك، لكن، لابد من بيعها لتمشية الأمور. بعتها لأحد الصاغة بسعر لايتناسب وقيمتها الحقيقية. قمتُ بتسديد الإيجار وبعض الديون، وما هي إلا أيام لأجد نفسي لا أملك شيئا.

أخيرًا وعن طريق جيراني، حصلتُ على فرصة عمل مع شخص عراقي يملك محلا لبيع الملابس النسائية. كان الرجل كثير الصلاة، وله ندبة داكنة تتوسّط جبهته، وكان صوت تجويد القرآن لاينقطع أبدا في المحل المبارك، وكان يسألني في كلّ مناسبة وغير مناسبة عن صلاتي وصومي والتزامي بالدين، وكنتُ أجيبه بما يرضيه دائما.

وذات مرّة حضر صاحب المحل وعلى وجهه ابتسامة عريضة، وفي يده عُلبة مُغلّفة بورق ملوّن (هدية) وقال بصوت مرتبك، وبدا وكأنه طفل في المدرسة الابتدائية:

* عزيزتي لميس،أرجو أن تقبلي منّي هذه الهدية.

* هدية، بأي مناسبة؟

* ربما لاتوجد مناسبة بالنسبة لك، لكنني أجد أن المناسبات كثيرة معكِ.

* لم أفهم!

* هي عربون محبة بيني وبينك، وأنا رجل كريم وأقدّر وأثمّن الناس، الناس الذين يستحقّون من أمثالك.

* عفوا أي نوع من المحبة؟

هنا توقف قليلا وابتسم مطأطئا رأسه كخروف صغير:

* أنا أريدك حبيبة لي.

* ماذا تقول؟.. لكنك رجل متزوج ولك أطفال، وأنت متدين وتصلّي ... هل تمزح؟

* عزيزتي، أنا أريدك ضمن ضوابط الشرع وبما يرضي الله.

* كيف؟

* هل تعرفين شيئا عن زواج المتعة؟

* أرجوك لاأريد أن أسمع منك هذا الكلام.

* أرجوك اسمعيني، أنت امراة وحيدة وحلوة، ولابد لكِ من شخص يهتم بك ويساعدك ويمنحك الحنان والحب..و.. هنا قاطعته، وصرتُ أصرخ بوجهه بصوت خرج إلى السوق واشتدّ غضبي وصرتُ أنبحُ بوجهه ككلب مسعور، حاول أن يهدئني، لكنه فشل مما اضطره أن تركني وهرب خارج المحل.

في اليوم التالي لم أذهب للمحل، فجاءني حيث أسكن، كلّمته من وراء الباب ودفعتُ له مفتاح المحل، وحذّرته من المجيء لي مرة أخرى.

عدتُ من جديد أفكّر بالعمل والبحث عن فرصة للكسب. مرّتْ الأيام لأجدني أواجه نفس المشكلة، تبخّر المبلغ الذي معي ومازلتُ لم أسدّد قيمة إيجار السكن.

خرجتُ في الصباح وليس معي أي قرش، ولا حتى أجرة ركوب سيارات النقل التي توصلني لوسط البلد.

صرتُ أمشي دون وعي، وفي رأسي تتلاعب شياطين كثيرة، وتموج في داخلي أفكار سوداوية تسحبني لأن أنهي حياتي وأستريح من هذه المأساة التي ضاقتْ على عنقي وخنقتْ أنفاسي.

أخذتْ آلامي تتزايد في منطقة الظهر والرقبة، آلام العملية السابقة التي أجريتها في بغداد. أورام تمّ استئصالها بعملية جراحية معقّدة، هاهي تعود الآن بسبب الضغط النفسي والإرهاق العصبي والتوتر الذي صار يلازمني بسبب العوز وسوء المعاملة من قبل الآخرين.

حاولتُ أن أهدأ وأنا أرسم في مخيلتي صورة ابنتي وهي تفتح ذراعيها وتركض نحوي وتعانقني وهي تضحك بصوت كأنه شلال مطر يهبط من السماء. توقفتُ لأمسح دموعي وأستريح على مطبة وحيدة موضوعة في مواجهة الشارع. رنّ هاتفي، لأسمع صوت أخي الساكن في الإمارات:

* لميس شلونك حبيبتي؟

تمالكتُ نفسي بصعوبة، ومثّلتُ بصوت مرح وصرتْ أضحك وأقهقه معه، وأردّد أنا بخير، إنني بخير. تكلمنا كثيرا عن أشياء كثيرة، انتهى الحديث بأنه أرسل لي مبلغا جيدا سيجعلني أستمر لفترة دون حاجة للعمل.

أجريتُ عدّة مقابلات مع وفود من دول مختلفة في مكتب الأمم المتحدة. تمّ قبولي من قبل الوفد الأمريكي. لم أفرح، لأنني أريد

الذهاب إلى السويد، لكنهم أبلغوني بأن السويد لاتقبلني أبدا، لكونهم سبق وأن رفضوا طلبي للهجرة من خلال طلب لمّ الشمل مع ابنتي.

اجتمعتُ مع السيدة السورية التي تُشرف على أوراقي وطلبتُ منها أن تنصحني، فأبلغتني أن الذهاب إلى أمريكا لاينفعني، لأنهم بخلاء في منح المساعدات وخاصة مع حالتي المرضية التي لاتسمح لي بالعمل والتي تحتاج علاجات نفسية وجسدية كثيرة، ونصحتني بمقابلة الوفد الكندي خلال الأيام القادمة.

لم يعُد الوضع السوري مُطمئنا. تفاقمتْ الأمور وضاقتْ مساحة الحركة بسبب الحرب التي أصبحتْ تزحف بنيرانها إلى المدن الآمنة. بدأتُ أشعر بخوف شديد وأنا أسمع الأخبار وكلام الناس عن العنف والقتل والمذابح التي صارتْ تقترب من الجميع. صرتُ أبكي كثيرا وأنا أصلّي كلّ يوم وطوال الليل، أصلّي لأجل الناس في سوريا، الناس الذين لايستحقون إلا الخير لما يملكون من طيبة وأصالة وجمال. لقد شعرتُ أثناء وجودي في سوريا – برغم المصاعب – بالأمان الذي كنتُ أعيشه في غرفة أمّي، وصارتْ لي صداقات مع عوائل سورية في غاية اللطف والاحترام.

أفكّر دائما بما حصل لشعب سوريا وأحزن كثيرا، وأتذكّر ما حصل لنا نحن أيضا في العراق ولشعبه المظلوم، وأتذكّر بعض أدعية أمّي وصلواتها وأستعيد صورة الله الذي لاينسى الضعفاء.

مرّ الوقت سريعا، وها أنا أجّهزُ نفسي لمغادرة بلاد العرب، ولا أعرف المجهول الذي ينتظرني في كندا حيث الثلج والبرد والمسافات البعيدة عن أهلي وناسي وبلادي.

تمّتْ

- كرم شعلان -
shalank@yahoo.com

(١٩٩٧ هروب ضابط طيار عراقي)

لم يكن هذا العنوان المثير قد عرف بشكل عام، او ربما لم يظهر اطلاقا، نتيجة لتعتيم الحكومة العراقية آنذاك على الخبر الصادم الذي هز القيادة العراقية وجعل الرئيس العراقي صدام حسين ينتفض غضبا معاقبا عددا كبيرا من الضباط في القيادات العليا في القوة الجوية العراقية والاستخبارات العسكرية .

هرب الضابط الطيار الحربي النقيب الخائن (م.ع) بصحبة الضابط الطيار الحربي النقيب الخائن (ا.ز) وهما يقودان طائرة مقاتلة متوجهين بها الى جهة مجهولة، ربما تكون إيران أو إسرائيل (هذا مارأيته مكتوبا على ورقة في مكتب ضابط التدقيق) .

لم يسمع بهذا الخبر أغلب العراقيين ولم تسمح السلطات بالاشارة له بأي وسيلة إعلامية، بل وضعت عواقب صارمة بحق كلّ من يسرّب الخبر أو يتحدّث به إلى الناس مهما كان وأينما كان.

هذا الخبر الذي هز الدولة، كان على نسبة عالية من التعتيم ، لكنه كان مفتوحا أمامي أنا وحدي، أنا التي سوف أواجه هذا الخبر بكلّ تفاصيله وتحليلاته وأبعاده ومسبباته ونتائجه وتداعياته وحقيقته وردود أفعاله وعمالته وعقوباته التي تجتمع بآلاف الإعدامات، نعم أنا وحدي سأواجه كلّ ذلك لأنني زوجة الضابط الطيار الحربي الخائن م.ع،أواجه كل هذا وأنا البنت التي لم تتجاوز السادسة والعشرين آنذاك .

لميس عمران



